الأعمال الخاصة

مكتبة ٢٠٠٠ الأسرة

مهرجان القراءة للجميع

عشر سنوات 2000





حوارات مع محمد سلماوى

نجيب محفوظ: وطنى مصر



الهيئة المصرية العامة للكتاب

نجيب محفوظ



وطني مصر

اسم العمل الفنى : وردة للعم نجيب
التقنية : كولاج فوتغرافيا وألوان
جواش على ورق
حلمى التونى (١٩٣٤)

فنان تشكيلى، تميز فى مجال الإخراج الصحفى والكتب والمطبوعات، إلى جانب استمراره فى إقامة المعارض، وهو صاحب أسلوب شاعرى بالغ الرقة مستوحيًا الرسوم الشعبية فى أشكال معاصرة.

فاز بالعديد من الجوائز عن رسومه لكتب الأطفال، كما فاز بميدالية معرض لايبزج للكتاب عام ١٩٨١، والمعرض يقام مرة كل ست سنوات.

وهو عضو لجنة تحكيم معرض بيروت الدولى.

وفى عام ١٩٧٦ نشرت هيئة اليونيسيف للفنان كتاب بعنوان (ماذا يريد سالم؟)، من تأليفه ورسومه، وتم توزيع الكتاب فى أنحاء العالم بلغات هيئة الأمم المتحدة الست.

وفاز بجائزة اليونيسيف عن ملصق العام الدولى للطفل.

واللوحة المنشورة بالغلاف رسمت خصيصًا للطبعة الأولى من الكتاب.

محمود الهندى



بعدسة سارة سلماوى

دار الشروق



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٠
مكتبة الأسرة
برعاية السيدة سوزان مبارك
(أعمال خاصة)

وطنى مصر
نجيب محفوظ
حوارات مع
محمد سلماوى

الغلاف
والإشراف الفنى :
للفنان محمود الهندى

المشرف العام
د. سمير سرحان

الناشر :
دار الشروق
الجهات المشاركة :
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التربية والتعليم
وزارة التنمية الريفية
المجلس الأعلى للشباب والرياضة
التنفيذ : الهيئة المصرية العامة للكتاب

على سبيل التقديم

وتمضى قافلة «مكتبة الأسرة» طموحة منتصرة كل عام. وها هى تصدر بصفة مستمرة طول العام برعاية كريمة من السيدة سوزان مبارك تحمل دائما كل ما يثرى الفكر والوجدان... عام جديد ودورة جديدة واستمرار لإصدار روائع أعمال المعرفة الإنسانية العربية والعالمية فى تسع سلاسل فكرية وعلمية وإبداعية ودينية ومكتبة خاصة بالشباب. تطبع فى ملايين النسخ التى يتلقفها شبابنا صباح كل يوم.. ومشروع جيل تقوده السيدة العظيمة سوزان مبارك التى تعمل ليل نهار من أجل مصر الأجمل والأروع والأعظم.

د. سمير سرحان

طبعة خاصة
تصدرها دار الشروق
ضمن مشروع مكتبة الأسرة

أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى -
رابعة العدوية - مدينة نصر
ص . ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩
فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى: email: dar@shorouk.com

تقديم

تعتمد مادة هذا الكتاب على حوارات ممتدة بين كاتب نوبل العربى الشهير نجيب محفوظ ، وصديقه الأديب المصرى الشاب محمد سلماوى ، وهي حوارات استغرقت أكثر من ٤٠ ساعة مسجلة يتحدث فيها محفوظ عن مصر التي يعرفها أكثر من أى شخص آخر : يعرف تاريخها وحضارتها ويعرف ناسها الذين يسكنون الحوارى والأزقة في المدينة القديمة والذين تمتليء بهم رواياته الـ ٥٠ ، كما يعرف أيضا مشاكلها الحالية من الأزمة الاقتصادية إلى التطرف والإرهاب .

وربما لم يستطع أحد أن يخرج ما في محفوظ مثل محمد سلماوي ، فهو أديب وكاتب مسرحي ، وهو من أقرب المقربين إلى محفوظ حيث اختاره ليكون ممثله الشخصي في احتفالات نوبل عام ١٩٨٨ التي لم يستطع محفوظ حضورها ، فكان محمد سلماوي هو المؤتمن على كلمة محفوظ التي قرأها بهذه المناسبة في الأكاديمية السويدية باستهوكهولم .

إلا إن محمد سلماوي ينتمي لجيل آخر غير جيل محفوظ ، وهذا الاختلاف يولد شرارة حديث شيق وحي بين الرجلين ، وقد كان هذا هو السبب الذى دعا محفوظ لاقتراح صيغة الحوار مع سلماوي لهذا الكتاب الذى يعتبر الأول من نوعه في اللغة الفرنسية ، فخلافا لما صدر من قبل في بعض الكتب الحوارية مع محفوظ يعتمد هذا الكتاب على موضوع واحد هو مصر ، مما يعطي فرصة نادرة للتعمق فيما يمثله « البلد الأم » كما يسميه محفوظ في الحوار . . البلد الذى اخترع الحضارة .



الطفولة والجمالية

○ كان من الطبيعي أن أبدأ حديثي مع نجيب محفوظ من البداية ، أى من الطفولة ، والبداية مع نجيب محفوظ لا يمكن أن تكون إلا من حي الجمالية بالقاهرة القديمة الذى شكل الخلفية لمعظم رواياته سواء القديمة أو الجديدة حتى أصبح هذا الحي القديم بمثابة أحد الأبطال الرئيسيين في روايات الكاتب الكبير خلال ما يقرب من نصف قرن من الزمان .

تلك الضاحية التي يرجع تاريخها إلى أكثر من ألف عام ، حين تم تأسيس القاهرة ذاتها على يد الحاكم المعز لدين الله الفاطمي ، والذى ما زال أحد شوارع الحي يحمل إسمه ، وقد لا يكون من قبيل الصدفة أن يكون شارع المعز واحدا من أكثر شوارع العالم امتلاء بالآثار ، ففيه أحد أجمل مساجد القاهرة الإسلامية وفيه مثال نادر لأحد الحمامات الشعبية القديمة والذى ما زال يمتلىء بالماء المغلي والبخار وبقية مبانيه نماذج حية للمعمار الإسلامي القديم .

□ تسألني متى بدأت أعي حي الجمالية القديم أقول لك بمجرد ما بدأت أعي ما حولي ، فأول ما جاءنى الوعي بأن شيئاً موجوداً كانت الجمالية أمامي ، وربما حين كنت أعيشها لم يكن حبى لها مثلما هو الآن ، لأنها كانت شيئاً طبيعياً بالنسبة لي ، طبيعي أن أفتح عيني في الصباح فأجد أمامي بيت القاضي ودرب أرمز ، ثم أصعد إلى سطح المنزل فأرى مئذنة جامع الحسين ، وأنزل إلى الشارع فأجد نفسى محاطا من كل جانب بهذا المعمار القديم الذى يميز الحي .

وحين كبرت قليلا وبدأ يتشكل لدى الإحساس بالتاريخ كنت أشاهد أهالي الجمالية يمشون في الطريق ، ويتحدثون إلى بعضهم البعض ويقضون حاجاتهم من بيع وشراء وخلافه . . فكان هؤلاء

الرجال والنساء يبدون أمامي وكأنهم جزء من التاريخ، كانوا هم أنفسهم الفاطميين الذين بني أحد كبارهم وهو جوهر الصقلي القاهرة قبل أكثر من ألف سنة وبني أحد قادته وهو بدر الجمالى حي الجمالية الذى سمي على اسمه . . كانوا هم أيضا الأيوبيين الذى جاء منهم صلاح الدين الأيوبي وهم المماليك ومن تبعهم .

كان ذلك كله شيئا عاديا بالنسبة لي وأنا أسكن الحي ، وكان يبدو لي أن هذا هو ما ينبغي أن يكون ويسرح نجيب محفوظ بذاكرته وتخترقني نظراته التي تذهب بعيدا وهو يقول :

كم نظرت من خلف المشربية التي كانت تغطي شبابيك بيتنا القديم بالجمالية إلى شوارع الحي ! ثم تقف عيناه وكأنه وجد أخيرا ما كان يبحث عنه في الماضي السحيق :

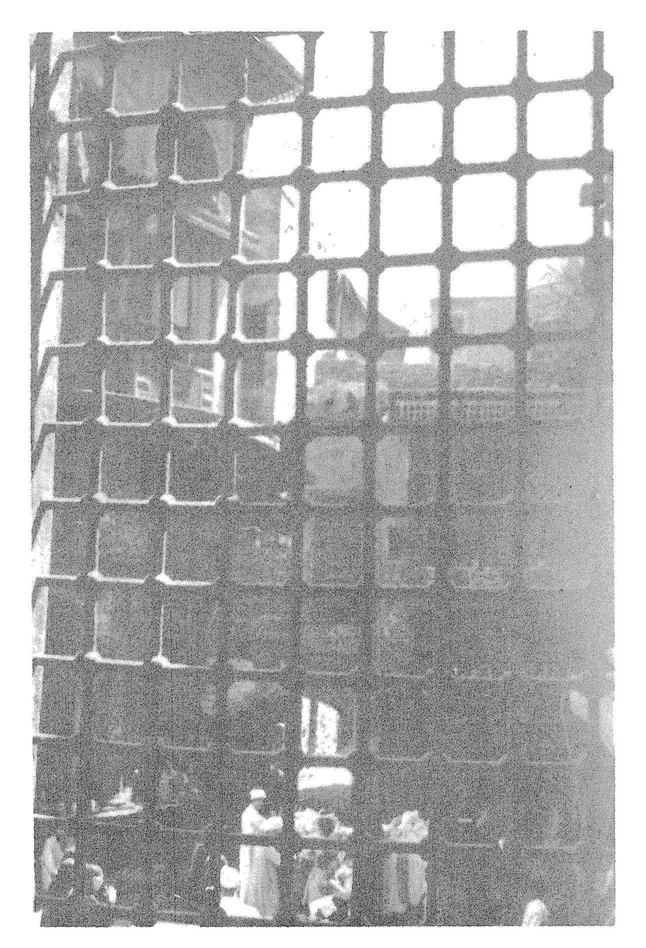
لقد شاهدت من ثقوب مشربيتنا ثورة ١٩١٩ وهي تولد . . شاهدت الميدان الهادىء المليىء بأشجار الصفصاف التي نطلق عليها اسم «ذقن الباشا» وقد تفجر عن الآف مؤلفة من الرجال والنساء يهتفون هتافات لا أفهمها فقد كان عمرى في ذلك الوقت سبع سنوات .

○ من الغريب أن الثورتين الكبيرتين في التاريخ المصرى الحديث وهما ثورة ١٩ وثورة ٥٢ قامت أولاهما وأنت في سن السابعة وقامت الثانية وأنا في سن السابعة .

فيرفع نجيب محفوظ حاجبيه قائلا :

□ مصادفة غريبة . . إن التاريخ يعيد نفسه من جيل إلى جيل . . إنني ابن ثورة ١٩ مثلما أنت ابن ثورة ٥٢ ، فقد نشأنا على المبادىء والمثل التي قامت عليها ثورة ١٩ كما نشأتم أنتم على مبادىء ثورة يوليو ٥٢ .

○ لقد عايشت أنت الثورتين فلنعد بعد ذلك للمقارنة بينهما ولرؤيتك



لكل منهما ، لكن ليس قبل أن تكمل حديثك عن هذا الحي السحرى الذى عشقته والذى ألهمك الكثير من روائعك الأدبية .

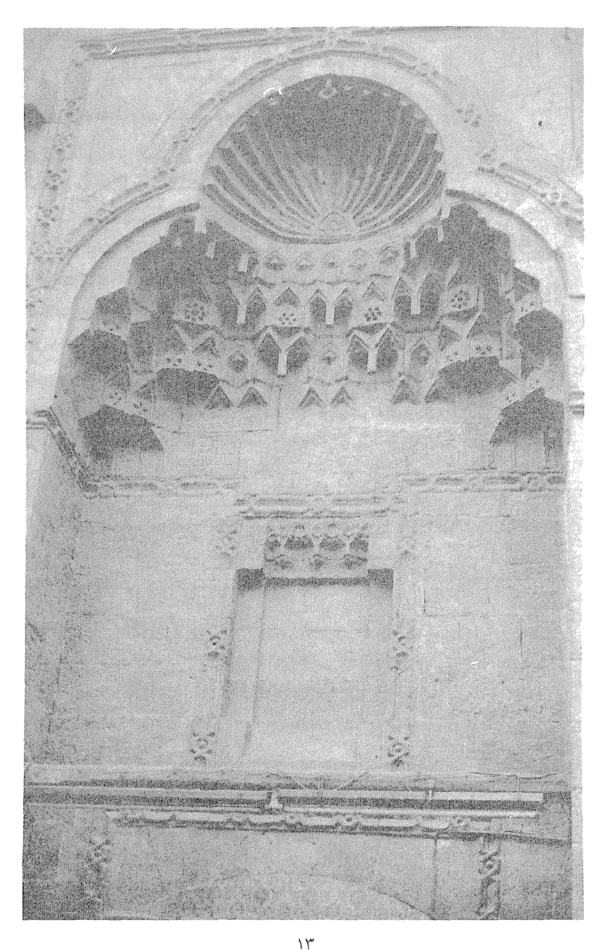
□ لقد قضيت في الجمالية أعز أيامي دون أن أدرى ، لكن تلك السنين لم تدم طويلا ، فقد كان حي الجمالية كسائر أحياء القاهرة القديمة يشهد في العشرينات والثلاثينات من هذا القرن عملية هجرة إلى أحياء أخرى حديثة ، فقد بدأت معظم العائلات تنتقل شمالا ، فانتقلت العائلة التيمورية مثلا والتي جاء منها أكثر من كاتب وكاتبة إلى حي الحلمية بينما انتقلنا نحن إلى حي العباسية .

ولقد سررت في البداية لذلك لأننا تركنا الحي الشعبي إلى منزل بحديقة ، فيما كنا نطلق عليه حي الذوات الذى كان الجانب الشرقي منه مليئا بالسرايات . . إن نصف العائلات التي سكنت العباسية الشرقية جاءت من درب أرمز مثل عائلات السيسي والمهيلمي والخربوطلي .

لكن ما إن استقررنا بالعباسية حتى بدأ يظهر عندى حب الجمالية الذى لم أبرأ منه بقية حياتي ، فكل جمال الحي الجديد والأصدقاء الجدد الذين عرفتهم لم يستطيعوا أن ينسوني حيّنا القديم .

فالذى حدث هو أنني بدلا من أن أندمج في حياة العباسية ، فقد نجحت في أن أقنع العباسيين (أصدقاء العباسية) بأن يأتوا معي ليتعرفوا على الحي الذى ولدت فيه ، وهكذا لم يكن يمر أسبوع دون أن نذهب إلى الحي القديم ، حيث كنا نجلس في قهوة الفيشاوى وفي قهوة أخرى قديمة كانت في زقاق المدق ، أما في الإجازات فكنت أذهب يوميا إلى حيى القديم فأجوب وحدي الطرقات التى كنت أمشي فيها مع والدتي حين كنا نسكن الحي ، وكنت أنظر إلى بيتنا القديم فأجده جميلا جدا ، كان مبنيا على الطراز القديم ، وكانت تزين واجهته مشربيتان جميلتان ما زلت أذكرهما .

ويصمت نجيب محفوظ قليلا فلا أقاطع صمته إلى أن يقول :



□ للأسف إن منزلنا القديم بالجمالية تحول بعد ذلك إلى قهوة إلى أن هدم ، وأقيمت بدلا منه عمارة من عدة طوابق قبيحة الشكل .

○ كيف كان المنزل وقت كنت تسكنه ؟

□ كان مكونا من ٣ طوابق ، لكن كان بيتا صغيرا فكان كل دور فيه يتكون من غرفتين ، لذلك من كان يسكنه كان يسكن رأسيا وليس أفقيا ، وقد كانت غرفتى فى الدور الثانى مع والدتي ، وفى الدور الأول كانت هناك غرف الضيوف أو ما كان يطلق عليه فى ذلك الوقت غرفة المسافرين حيث كان يبيت فيها من كانوا يأتون لزيارتنا من خارج القاهرة ، أما في الدور العلوى فكان يسكن أشقائي وشقيقاتي قبل أن يتزوجوا ويتركونا إلى بيوت أخرى .

○ إن هذا الحي بسحره القديم ألهمك الكثير من أعمالك الروائية في فترات مختلفة من حياتك ، فقد كنت في بعض الأحيان تتركه لتعود إليه مرة أخرى في عمل جديد .

□ لقد ألهمني هذا الحي أشهر أعمالي جميعا وهو « الثلاثية » .

○ لكنه ألهمك أيضا « خان الخليلي » قبل ذلك و« زقاق المدق » ، بل إن بعض قصصك القصيرة التى تنشر الآن وهي آخر ما كتبت يدور بعضها في الجمالية حتى لو لم تسمه في القصة .

□ إن هذا الحي كان يلهمني ، لكنه أكثر من ذلك كان يمتعني بأهله الذين مازالت فيهم سمات أجدادهم الذين كانوا يسكنون نفس هذه البيوت القديمة ، وكانوا يقومون بنفس الأعمال والحرف في حواريه الضيقة وفي أزقته .

○ إن الحارة في أعمالك هي رمز لأشياء كثيرة .

□ نعم ، إنها في بعض الأحيان الحارة الواقعية التى عرفتها في طفولتي ، وأحيانا هي رمز للوطن مثلما في « زقاق المدق » ، وأحيانا هي رمز للدنيا كلها مثلما في «الحرافيش » أو فى « أولاد حارتنا » .



ثم يقول « الأستاذ » كما نسميه نحن أصدقاءه المقربين ومريديه وكما سأسميه هنا :

□ لكني أرى أن المدينة الحديثة بكل مشاكل سكانها المعاصرين هي محور أعمالك الأدبية خاصة في المسرح .

إن بعض الذكريات تعود بي إلى سن السابعة حين بدأت لأول مرة أجرب الصيام في شهر رمضان ، كنت في هذه السن المبكرة أصعد إلى سطح بيتنا .

وأظل أنظر إلى مئذنة جامع الحسين فى انتظار أن أسمع صوت المؤذن معلنا حلول المغرب ، وفى طفولتى هذه كان رمضان هو الشهر الوحيد الذى يسمح لى فيه أن أخرج فى الليل ، وأن ألهو بالفوانيس مع أصدقائى ونغنى « وحوى يا وحوى » .

أما فى الكبر فكان اليوم مختلفا حيث كنت أمضى وقتا طويلا من نهارى فى القراءة ، سواء كانت القراءة الدينية أو الأدبية ، وكنت ألاحظ أن تذوقى للقراءة خلال أيام رمضان كان أعمق بكثير من بقية شهور السنة . هل يخلق الصيام فى الإنسان نوعا من الشفافية يجعله يصل إلى أعماق قد لا يدركها وبطنه ممتلىء ؟ أم إنه يعطى دفعة روحية للصائم تظهر علاماتها فى هذا التذوق المرهف ؟

على أن ما أفتقده الآن فى رمضان هو جو الحسين بعد الإفطار ، فقد كانت جميع البيوت الكبيرة تقدم سهرات مديح نبوى تقرأ فيها التواشيح النبوية بأصوات أفضل منشدى العصر مثل على محمود الذى كان أسطورة آنذاك ، وكانت بيوت أخرى تفتح « المندرة » للجميع ابتداء من المغرب حين كان يقدم الإفطار ثم تبدأ تلاوة القرآن إلى وقت السحور ، وكان القراء يتبارون ما بين بيت وبيت ، فتتصاعد أصواتهم فى عزف متناغم لا تنافر فيه بعكس تلك الميكروفونات القبيحة التى نعرفها اليوم والتى تتداخل أصواتها طريقة ميكانيكية لا تناغم فيها ولا انسجام .



ولقد كنت خلال شهر رمضان أمضى الليل كله فى الحسين إلى أن يحل موعد السحور فأتسحر مع أصدقائى فى قهوة الفيشاوى ثم أعود إلى البيت ، وحين انتقلنا إلى العباسية كنت أواظب على هذا البرنامج وأعود فى الفجر مع أصدقائى عن طريق الجبل حيث أقيم الآن طريق صلاح سالم وفى ذلك الوقت لم يكن به بيت واحد قائم .

ربما كان ذلك هو أحد الفوارق بين جيل ثورة ١٩ وجيل ثورة ٥٢ ، فثورة ١٩ كما قلت نشأت في الأحياء القديمة وكانت تطالب بالحرية والاستقلال ، أما ثورة يوليو التى حققت الاستقلال منذ سنواتها الأولي فقد انصرفت إلى تأسيس الدولة الحديثة ، كما أن سعد زغلول هو ابن المجتمع الريفي القديم أما جمال عبد الناصر فهو ابن المدينة .

○ لكن قل لي إلى متى ظللت تتردد على حيك القديم ؟

□ طوال حياتي ، فحتى بعد أن أكملت دراستي بقسم الفلسفة بكلية الآداب جامعة القاهرة ، وعينت موظفا بوزارة الأوقاف كنت أحرص على أن أذهب مبكرا إلى الجمالية حيث كنت أجلس قليلا على أحد مقاهيها القديمة لأدخن الشيشة قبل أن أذهب إلى العمل .

ولقد اكتشفت خلال هذه الزيارات الصباحية أنني لست الوحيد من سكان الجمالية القدامي الذى لم يبرأ من حب الحي ، فكثيرا ما كنت أشاهد أحمد تيمور (بك) سليل العائلة التيمورية والأمين بالقصر الملكي مع خياط من الحى يتناولان أفطارهما المكون من الفول والبصل الأخضر ، وكنت : أتساءل كيف يستطيع أحمد (بك) أن يقوم بمهام منصبه بالقصر ويحضر مقابلات الملك بعد أكل هذا البصل ذى الرائحة النفاذة ؟ خاصة وأن الملك فؤاد كان معروفا بالشدة والصرامة ، لكنه حب الجمالية الغالب دائما .

○ **فى أى ساعة كان يبدأ عملك بوزارة الأوقاف في الصباح ؟**

□ فى الثامنة صباحاً .

○ **ألم تتأخر في أى يوم بسبب هذه الزيارات الصباحية للجمالية ؟**

□ إننى لم أكن أذهب للجمالية كل صباح ، لكن في الأيام التى كنت أذهب إليها كنت أصل إلى عملي فى الموعد المحدد .

ثم يبتسم قائلا :

كما تصلني أنت دائما في الموعد المحدد .

○ **ذلك لعلمي بحبك للدقة والنظام والانضباط في المواعيد .**

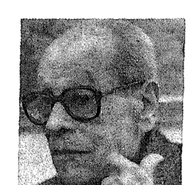
وكان الأستاذ يشير بذلك إلى واقعة حدثت فى بدايةحديثه هذا ، حيث كنت دائما على موعد معه فى السادسة مساء يوم السبت من كل أسبوع بمنزله الواقع على النيل بضاحية العجوزة بالقاهرة ، ونظرا لضعف سمعه الذى اشتد عليه فى السنوات الاخيرة فلم يكن يسمع جرس الباب ، وكانت دائما السيدة عطية الله زوجته (أو إحدى ابنتيه أم كلثوم أو فاطمة) هى التى تفتح الباب ، لكن فى هذا اليوم ما إن ضغطت زر الجرس حتى وجدت الأستاد نجيب محفوظ يفتح لى بنفسه ، ولم أتمالك نفسي فى أن أسأله بعد ذلك كيف سمع جرس الباب ؟ فقال لى ببساطة :

أنا لم أسمعه ولكنى تعودت أن تجيئنى دائما فى الميعاد لذلك حين وجدت الساعة السادسة فتحت الباب فوجدتك أمامي .

ونعود إلى حديث الجمالية فسألته :

○ **متى كانت آخر مرة زرت فيها الجمالية ؟**

□ لقد ظللت أزورها إلى أن منعنى حادث الاعتداء من ذلك ، أولا بسبب خضوعي للعلاج ثم بسبب إجراءات الأمن المفروضة على الآن والتى يمنعوننى بمقتضاها من الوجود فى الأماكن المزدحمة بالناس والتى أمضيت بها الجزء الأكبر من حياتى .



ويصمت قليلا ثم يضيف :

□ الآن حين يستبد بى الحنين فإني أخرج مع الأصدقاء حيث أنظر للحي من داخل السيارة ونحن نمر فوق الكوبرى العلوى فأرى مئذنة جامع الحسين ، أوقهوتي التى اعتدت ، وأتخيل حوارى الجمالية الصغيرة والأزقة التى لا أظن أننى سأراها ثانية .

إن ارتباط محفوظ بمصر ليس ارتباطا معنويا فقط، وإنما هو أيضا ارتباط جسدي حيث لم يبرح الكاتب الكبير مصر إلا ثلاث مرات طوال ٨٥ عاما ، وقد كان فى كل مرة منها مضطراً لذلك . أولاها إلى اليمن حين طلبت القيادة السياسية فى الستينات من كبار الكتاب الاطلاع على الحرب التى كانت دائرة هناك، والتى كانت مصر طرفا فيها وإبداء رأيهم فى جدوى تلك الحرب ، والمرة الثانية فى نفس الفترة حين صدر قرار بتشكيل وفد من الكتاب المصريين لزيارة يوجوسلافية كنوع من التبادل الثقافي بين البلدين اللتين كانت هناك علاقة صداقة قوية تربط بين قائديهما عبد الناصر وتيتو .

وقد امتنع محفوظ بعد ذلك عن السفر خارج مصر إلى أن اضطر عام ١٩٩١ لإجراء عملية جراحية أخذته إلى عاصمة الضباب : لندن على أن ما ينبغى التأكيد عليه هو أن نجيب محفوظ مع ذلك هو أكثر الكتاب المصريين انفتاحا على حضارات العالم وآدابها ، فهو لا يعرف الشوفينية قط وتأثره بالأدبين الفرنسي والإنجليزى لا يخفيه عن أحد .

أسأل نجيب محفوظ عن مصر ، ذلك البلد الذى أصبح يمثله ويرمز له أكثر من أى كاتب آخر فى التاريخ الحديث ، حتى أصبح نجيب محفوظ ومصر يكادان يكونان مترادفين ، فمن هى مصر بالنسبة له وكيف يراها ؟ هل هى مجرد قطعة الأرض التى نشأ عليها أم هى أكثر من ذلك ؟

فيقول الأستاذ :

□ لا ، مصر ليست مجرد قطعة أرض ، مصر هى مخترعة الحضارة ، لذلك فهى فى التاريخ الإنساني بمثابة البلد الأم ومهما آل إليه أمرها فإن ذلك يجب أن يحفظ لها اعتبارا خاصا واحتراما بين الأمم تماما مثل ما يستحقه الأب والأم من اعتبار حتى وإن فاقهما الأبناء فى الثراء أو فاقوهما فى العلم أو القوة .

ولأن مصر هى أقدم الحضارات فقد توالت عليها الأمم جميعا فبعد الفراعنة جاء الفرس ثم الإغريق ثم الرومان ثم العرب وهكذا ، وقد كان من نتيجة ذلك أن أصبح وادى النيل كتابا عالميا لجميع الحضارات ، فكل حضارة جاءت وتركت توقيعها فى هذا الكتاب ، ففى القاهرة تستطيع أن تشاهد الآثار المصرية القديمة والرومانية والإغريقية والقبطية والإسلامية إلى جانب الحضارة الحديثة .

ثم يرفع الأستاذ أصبعه قائلا : هنا تاريخ البشرية كله فلا أعتقد أن ذلك التاريخ تجمع لبلد آخر كما تجمع لمصر ، وقد احتضنت مصر كل هذه الحضارات فى أمومة واضحة ولولا ذلك لما مكثت فيها هذه الحضارات ولما تركت فيها بعضا منها .

○ ما الذى أهل مصر لذلك ؟

□ إنه قدرها وحظها فى الحياة وما كتب لها أن تلقاه وتتعامل معه بخيره وشره .

○ يقال إن نابليون بونابرت قال إن مصر أهم دولة فى العالم .

□ بالنسبة لرجل جاء لكي ينشيء إمبراطورية عالمية فليس غريبا أن يكون قد قال ذلك لأنه وجد فى مصر المرتكز الحقيقي لهذه الإمبراطورية .

إن ذلك الموقع الجغرافي الفريد أعطى لمصر ميزة بين الأمم توازى ميزة حضارتها بين سائر الحضارات ، فموقعها مفصلي في نقطة التقاء قارات العالم الثلاث الكبرى والذين كانوا في الجزء الأكبر من تاريخ الإنسانية هم العالم كله .

○ من الغريب أنه مثلما ترك الغزاة آثارهم في مصر فمن الملاحظ أن مصر قد تركت هي الأخرى تأثيرها على هؤلاء الغزاة دون أن تبرح مكانها ، من الإسكندر الأكبر إلى بونابرت ، فقد تأثر الإسكندر بمصر لدرجة أنه سمى نفسه ابن آمون إله المصريين ، ولبس لباس الفراعنة وأوصي بعد موته بأن يدفن فى أرض مصر .



أما نابليون فقد عاد إلى فرنسا حاملا معه ما أصبح يعرف باسم « الولع بمصر » Egyptomarie فبدأ عهد من الدراسات المصرية غير مسبوق، وتغلغلت مصر فى كل جوانب الحياة فى فرنسا حتى فى الأثاث، فقد تحولت طرز لويس الخامس عشر والسادس عشر إلى طراز الإمبراطورية الذى ملأته الأشكال الفرعونية، ثم عاد نفس الطراز بعد ذلك بسنوات يلح مرة أخرى فيما عرف بعودة مصر retour d' Egypte .

فيقول الأستاذ :

□ إن لمصر سحرا خاصا لا يستطيع أن يتحدث عنه إلا من عرفه، ولقد جاءها الغزاة بالجيوش والأساطيل فغزتهم هى بالحضارة لأن حضارتها كانت أقدم وأعرق من حضارة كل من غزاها .

إن قدرة مصر وصلت إلى حد استيعاب كل من غزاها حتى أصبح الغزاة يتشبهون بها، ويتخذون من عاداتها بل ومن دياناتها عادات وديانات لهم، وقد جعلها هذا فى حقيقة الأمر غير محتلة، لأن الحاكم الأجنبى كاد يصبح فى النهاية مصريا وخير مثال على ذلك كليوباترا مثلا .

ولم يكن هذا هو الحال فى التاريخ القديم فقط، وإنما أيضا فى العصر الحديث، فإذا أخذنا على سبيل المثال محمد على ذلك العسكرى الألبانى الذى استقل بمصر وحكمها هو وأبناؤه، وقد كان أخرهم فاروق الذى خلعته ثورة ١٩٥٢ . . من ذا الذى يستطيع أن يقول إنهم لم يكونوا مصريين ؟ إن محمد على هو الذى أخرج المصريين من ظلمة التاريخ الى مسرح الحياة، ورفض الشعب للملك فاروق فى نهاية عهده لم يكن من منطلق أنه ليس مصرياً ولكن بسبب فساد حكمه .

○ لكنى ألاحظ فى بعض رواياتك أن هناك تفرقة بين التركى والفلاح، وأذكر فى الثلاثية على سبيل المثال أن تقدم أحد أبناء الفلاحين للزواج من بنت إحدى العائلات ذات الأصل التركى وكانت مصر فى ذلك الوقت جزءا من الإمبراطورية العثمانية، وقد طرد شر طردة بعد أن

رفضته العائلة ، فكيف تزوج العائلة التركية ابنتها لأحد أبناء الفلاحين ؟! وحين علموا أنه قد تعلم بعد ذلك فى الخارج وحصل على أكبر الشهادات اعتبروا تلك مصيبة أكبر وأصروا على رفضهم .

□ نعم ولكن تلك كانت تفرقة طبقية أكثر منها تفرقة عرقية ، فتلك العائلة التى رفضت العريس الفلاح لم تفعل ذلك بسبب أصولها التركية ، وإنما بسبب الفارق الطبقى بينها وبين عائلة العريس .

○ إن خاصية استيعاب من يأتى من الخارج التى تتحدث عنها هى خاصية مصريه صميمة ، وقد أضيف الى محمد على الجنرال الفرنسى دى سيف de Seve الذى استوطن مصر ، وأصبح سليمان باشا الذى يقود الجيوش المصرية .

لكنى أذكر مثلا حين زرت استراليا أننى عجبت لأن معظم المدن الاسترالية تقع على السواحل أما قلب القارة فيكاد يكون خاليا ، وقد قال لى المؤرخ الاوسترالى الشهير ما نينج كلارك : إن السبب فى ذلك أن كل من جاءوا إلى اوستراليا جاءوا رغما عنهم ، لذلك ظلوا شاخصين بأبصارهم عبر البحر إلى البلد الأم إنجلترا ، وظل بداخلهم حنين قوى للعودة إليها ، لذلك سكنوا الشواطىء ولم يدخلوا قلب القارة .

فيقول الاستاذ :

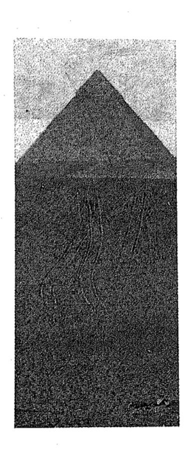
□ والغريب فى الأمر أنك إذا قارنت مساحة مصر بمساحة أوستراليا وجدت أن مصر هذه ذات التاريخ العريق والحضارة السامية ليست سوى شريط رفيع على جانبي النهر وبقية أرضها صحراء خالية . . لكن المسألة فى النهاية ليست مساحة الأرض وإنما هى الروح التى تسكن تلك الأرض ، فهذا الشريط الرفيع هو الذى خلق القيم الأخلاقية وهو الذى عرف الوحدانية الدينيةMonotheisme وهو الذى ابتدع الفنون واخترع العلوم وبدأ أساليب الإدارة ، وقد كانت تلك العوامل كلها هى التى أعطت

للمصرى القدرة على البقاء فى الوقت الذى اندثرت فيه حضارات وشعوب أخرى .

○ **وأين يكمن السر فى هذه القدرة ؟**

□ السر يكمن فى أن المصرى كان أول من أخرج الحياة من الأرض ، لذلك فهو حريص على هذه الحياة ويعرف كيف يحافظ عليها ، إن المصرى القديم هو مكتشف الزراعة وهو أول من قدس الخضرة ، وهو بهذا المعنى أول «الخضر» الذين عرفهم التاريخ الإنسانى ، ولقد شعر المصرى على مر العصور أن مهمته هى أن ينمى الحياة لأنه خلقها ولقد حول الأرض إلى نبات تنمو به الحياة التى يقدسها .

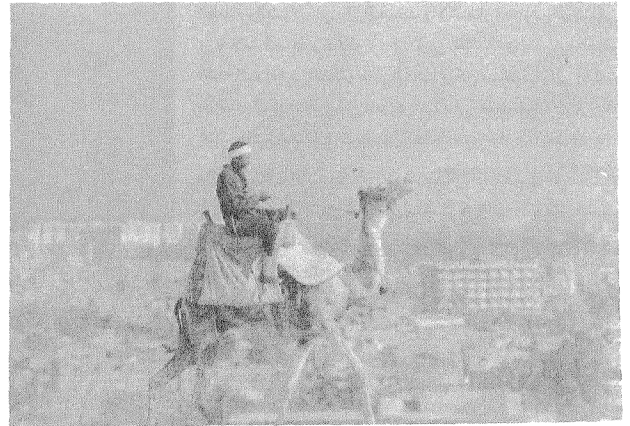
○ **يقال إن المصرى هو أكثر من قدس الموت وأفنى حياته فى بناء القبور و . .**



فيقاطعنى :

غير صحيح ، إن الموت الذى اهتم به المصرى القديم حين تتمعنه تجده امتدادا للحياة التى عرفها وأحبها وقدسها ، فأراد أن يأخذها معه إلى العالم الآخر ، لذلك تجد فى مقابر المصريين جميع أنواع الطعام والشراب بل والراقصات والأشعار وعازفى الموسيقى ورحلات الصيد وخلافه ، وهذا ليس الفناء الذى يتصوره العالم الحديث ، إنما هو انتقال بالحياة ذاتها وبكل مباهجها إلى العالم الآخر ، لذلك فحين يفنى المصرى حياته فى تحنيط أمواته ، وفى بناء القبور لهم فهو بذلك إنما يتحدى الفناء لتمتد الحياة فيما بعد الموت .

ثم يضيف الأستاذ : النقطة الثانية هى أن المصرى هو مخترع الأخلاق ، ولقد سبق بذلك أدياننا السماوية ، والأخلاق ليست فقط نظاما للتعامل بين الناس ولكنها هى التى تنظم المجتمع وتحميه من الفوضى والفناء .





أى الأمصار؟

وأقول لنجيب محفوظ :

حين تتحدث عن مصر ، عن أى الأمصار تتحدث فهناك مصر الفرعونية، ومصر اليونانية الرومانية ، ومصر القبطية ومصر الإسلامية ومصر الحديثة ، ثم هناك أيضا مصر البحر متوسطية ومصر الإفريقية ومصر الآسيوية .

□ إن مصر هي كل ذلك ، وغير ذلك لأن تلك الصفات ليست قائمة بذاتها، وإنما حين قدمت إلى مصر وامتزجت بمصر صارت شيئاً آخر ومصر كما أعرفها ليست نتاجاً لجمع كل الصفات ، وإنما هى نتاج جديد ومنفرد نشأ عن هذا الامتزاج ، تماما كالأوكسجين والهيدروجين اللذين لا يكون اجتماعهما هو أوكسجين زائد هيدروجين، وإنما هو شيء جديد يختلف فى خصائصه عن كل منهما ، وبقدر اختلاف الماء عن الغاز كان اختلاف مصر الحالية عن كل من هذه الهويات الحضارية ، فالمعمار الإسلامى فى مصر مثلا ليس هو المعمار الإسلامى فى تركيا أو فى المغرب، والكنيسة القبطية ليست هى الكنيسة المسيحية الأوروبية .

إن للشخطية المصرية جوانب متعددة لا شك فى هذا ، لكنها كلها مصر وليست شيئاً آخر .

○ **وأى تلك الجوانب أقرب إلى قلبك ؟**

□ إني أجد فى نفسي ميلا أكثر إلى مصر الإسلامية، التى تختلف عن إيران الإسلامية أو السعودية الإسلامية أو اندونسيا الإسلامية أو أفريقيا الإسلامية ، وربما كان ارتباطي بها لأسباب شخصية ، فأحياء القاهرة الإسلامية القديمة هي التى ولدت بها

وتشربت بروحها وكل حركة من حركتها تمثلتها تماما وعشقتها تماما، وأقصد الأحياء المملوكية والأيوبية والفاطمية بشكل خاص .

ثم تليها عندى مصر الفرعونية التى هي الأصل وبداية الحضارة . والحقيقة أنك حين تتكلم عن مصر القديمة يتسع القول، فهي إلى جانب اكتشافها الزراعة فإنها أيضا مخترعة الأبجدية ، وهي كما قلنا أول من وضع الأخلاقيات وبشر بالقيم السامية فكان أن بزغ فيها الضمير الإنساني .

○ وماذا أضافت مصر الإسلامية إلى مصر الفرعونية ؟

□ أضافت فى المقام الأول العقيدة ، فحين فتح الإسلام مصر لم يأت إليها بحضارة جديدة أو متفوقة على حضارتها ، وإنما أتى إليها بعقيدة سامية وبكل ما كانت تمثله تلك العقيدة من مبادىء ومثل، ومنها ما لم تكن مصر القديمة قد توصلت إلى تحقيقه وهو مبدأ العدالة والمساواة بين كافة البشر والتى تعتبر ركنا أساسيا من أركان العقيدة الإسلامية التى لا تعرف فرقا بين الأسود والأصفر والأبيض، ولا فرق بين الغني والفقير ، ولا بين الحاكم والمحكوم وعمر بن الخطاب كان خير تجسيد لذلك .

إن الإسلام جاء إلى مصر بالعقيدة ، كما ذهب إلى الشام وإلى بلاد الفرس ، فمثلما كانت لمصر حضارتها كانت فى الشام حضارة بيزنطية، وفى إيران كانت الحضارة الفارسية . ولو كانت العقيدة الإسلامية ضعيفة لانغلقت على نفسها، ورفضت تلك الحضارات، لكنها على العكس من ذلك اختلطت بها فأثرت فيها وتأثرت بها لأن الإسلام كان دين عقل ومعرفة وعلم فاستخلص من هذه الحضارات أحسن ما فيها، وترجم وأضاف إليه فكانت الحضارة الإسلامية ، ولذلك نجد أن مراكز ازدهار الحضارة الإسلامية ونموها هى مراكز حضارة القاهرة ودمشق وبغداد وقرطبة .

○ وماذا عن مصر القبطية ؟

□ إن مصر القبطية تعتبر نسبيا فترة قصيرة فى حياة مصر بالمقارنة مع الآف السنين التى عاشتها الفرعونية قبل ذلك أو الاسلامية بعد ذلك ، لكنها مع ذلك كانت فترة هامة جدا أثبتت أن الروح المصرية التى ذكرناها قبل ذلك لا تموت أبدا مهما وصل الاحتلال فى محاولاته لطمس الهوية المصرية . إن مصر القبطية هى الرد الوطنى على الاحتلال الرومانى الذى رغم أنه دام طويلا إلا أن مصر رفضته واتخذت لنفسها دينا مغايرا لمعتقدات الاغريق والرومان، ولرغبتهما وتحملت فى سبيل ذلك أهوالاً كبيرة ، ولا عجب أن تلك الفترة شهدت ثورات وتمردات كانت حلقات متصلة للمقاومة الشعبية فى ذلك الوقت .

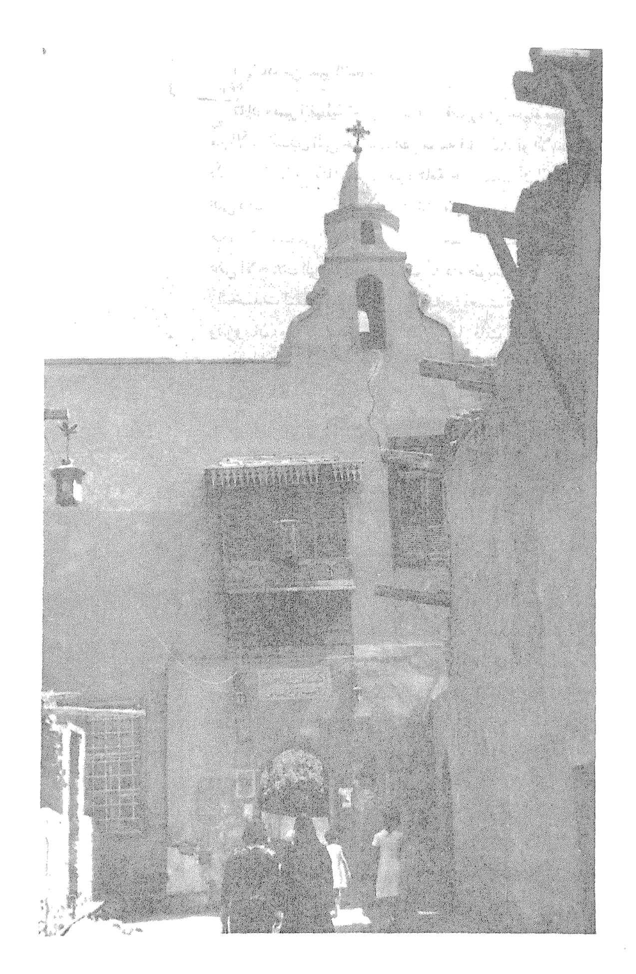
ثم يقول الأستاذ :

□ إن القبط هم الذين حافظوا على روح مصر القديمة، ومصر القبطية لذلك هى همزة الوصل بين التاريخ المصرى القديم والتاريخ الحديث . وحين وصل الإسلام مصر وجد أن حضارتها القديمة مازالت قائمة فخلصها من الظلم الروماني ومنح الأقباط حقوقهم ثم اندمج مع مصر إلا أن أعمدة الإسلام المصرية كانت هؤلاء القبط الذين دخل الكثير منهم الدين الإسلامي ، واتخذت الكنيسة القبطية اللغة العربية لغة رسمية لها بعد أن أصبح يتحدثها كل سكان مصر ، ولقد تركت لنا مصر القبطية العديد من الآثار والأعمال الفنية المتميزة .



ثم يذهب نجيب محفوظ بفكره بعيدا ليعود بعد لحظات قائلا :

إن لمصر القبطية هوى خاصا فى نفسي يعود فى جزء منه بلا شك إلى أننى مصرى ، لكنه فى جزء آخر يعود لأيام الطفولة . . لقد كانت والدتي سيدة أمية لا تقرأ ولا تكتب لكنها كانت على درجة عالية من الثقافة ، ففى الوقت الذى كان يمكن لمثيلاتها أن يكتفين بأخذ أطفالهن إلى حديقة الحيوان مثلا كانت أمى تأخذنى دائما إلى



زيارة آثار مصر القديمة ، وقد كانت تقف أمام قلعة صلاح الدين أو الكنيسة المعلقة بنفس الانبهار الذى تقف به أمام أهرامات الجيزة ، ولقد عرفت منذ طفولتي المبكرة ـ حيث لم يكن عمرى قد تخطى سن الرابعة فى ذلك الوقت ـ عظمة كنيستى أبو سيفين ومار جرجس التى لا تأتى من أبهة الطراز التى تعرفها الكنائس الكاثوليكية ، وإنما من نقشها الكلاسيكى الذى يذكرنا بالآثار المصرية القديمة ، كما عرفت أيضا فى ذلك الوقت جمال النسيج القديم بالمتحف القبطي الذى زرته عدة مرات مع أمى .

○ **وأسال نجيب محفوظ عن مصر الإغريقية الرومانية .**

□ فيقول : إن أكثر ما يستلفت النظر فى التراث الإغريقي الروماني فى مصر هو تأثره الشديد بالفرعونية ، فقد مكثت تلك الفترة سنوات طويلة حتى صارت جزءا لا يتجزأ من التراث المصرى، فمن ذا الذى يستطيع أن يقول : إن كليوباترا ليست مصرية ؟ ومن ذا الذى يستطيع أن يقول : إن معمار أبنيتها ليس فرعونيا رغم أعمدته الآتية من الطرز الأيونية ionique أو الدورية dorique ؟ ومن ذا الذى يستطيع أن يقول : إن الإسكندرية ليست مصرية ؟

فالحقيقة أن تلك الفترة تعتبر تطورا جديدا على الإغريقية القديمة ، فقد تأثر الفكر الإغريقي بما وجده فى مصر ، فأخرج فلسفات جديدة أخلاقية وصوفية لم تكن معروفة فى الفلسفة الاغريقية القديمة ومدرسة الإسكندرية شاهدة على ذلك وكذلك مكتبة الإسكندرية Biblioteka Alexandrina وفلسفة أفلوطين التى كان أول من بشر بها أحد مواليد أسيوط .

ويمضي استعراض الأستاذ لتاريخ مصر حتى يصل إلى عصر محمد على فى بداية القرن التاسع عشر ، والذى يصفه بأنه كان مقدمة النهضة الحديثة فى الوطن العربي ، وفى العواصم الإسلامية ، فمصر محمد على هى التى اتصلت بأوروبا فحدث

التفاعل بين الأفكار الغربية الحديثة، والتراث الإسلامي العريق فانطلقت شرارة التقدم.

○ ألا ترى أنه رغم التباين الشديد ما بين المؤثرات المختلفة التى تعرضت لها مصر طوال تاريخها إلا أن المصرى هو المصرى بنفس طباعه القديمة ؟ هو نفس الإنسان المحب للحياة والتسامح والإخاء ، وحياته مازالت فى بعض الأحيان هى نفس حياته القديمة ، فالفلاح مازال يستخدم الشدوف الذى وجدنا رسومه على الجدران الفرعونية ، بل إن الكثير من الطقوس الإسلامية الحالية لا تأتى من الإسلام، وإنما من العادات الدينية التى كانت سائدة فى مصر القديمة مثل « الخمسان » وذكرى الأربعين التى انتقلت بعد ذلك من مصر إلى دول إسلامية أخرى.

□ فى ذلك قدر كبير من الحق لكنه ليس الحق كله ، فإلى جانب بعض الجوانب التى ظلت فى شخصيتنا منذ العهود القديمة إلا أننا لا ينبغى أن ننسى أن الإسلام قد أعاد خلق الشخصية المصرية ، صحيح أنه لم يمح الجذور لكنه قد أعادها فى طبيعة وتكوين جديدين أكثر من أية فترة أخرى تالية للفترة الفرعونية .

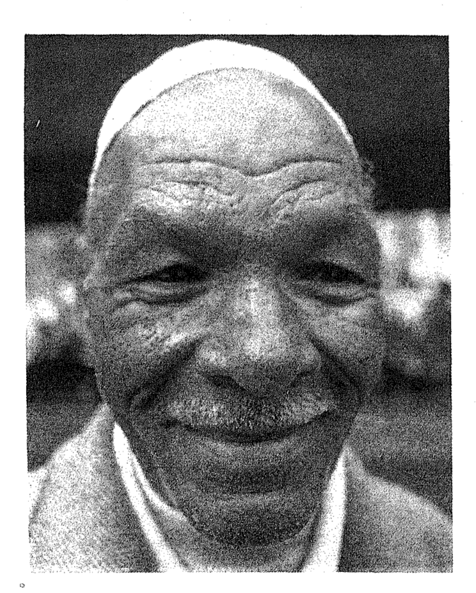
○ ألم تقم مصر بإعادة صياغة الإسلام أيضا ؟ إن الاسلام الذى نعرفه فى مصر يختلف إن قليلا أو كثيرا عن إسلام إيران أو إسلام ماليزيا أو أوزبكستان ، لقد أعادت مصر تصدير هذا الإسلام إلى أجزاء كثيرة من العالم العربى .

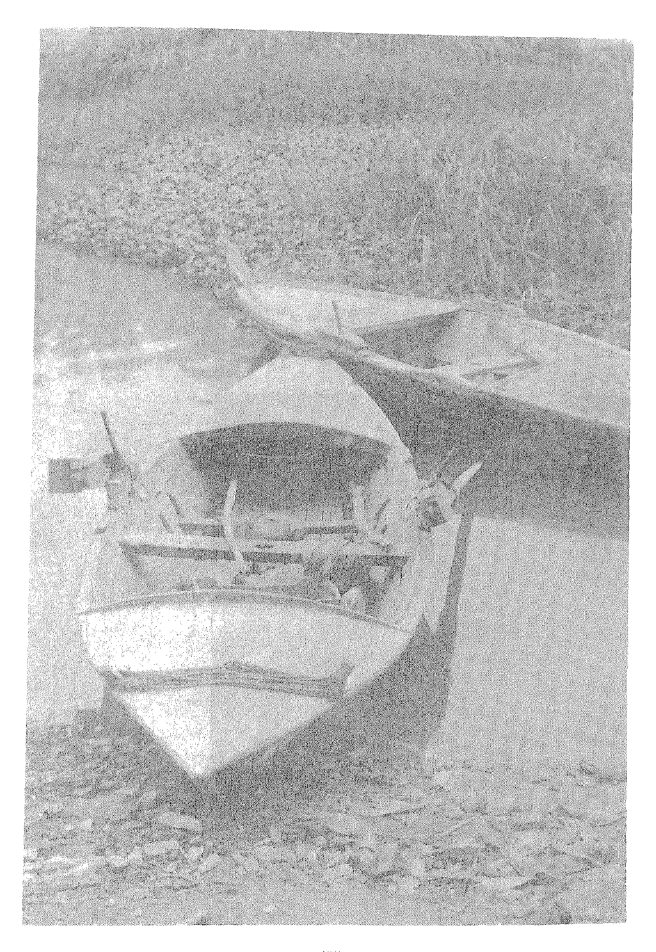
وعلى سبيل المثال فإن طريقة إنشاد القرآن التى تعرف باسم التجويد قد نشأت فى مصر اعتماداً على الإنشاد الذى أخذته الكنيسة القبطية من الغناء الدينى فى مصر الفرعونية ، ولقد أصبح التجويد الآن هو الإنشاد السائد فى العالم العربى للقرآن .

بلا شك قد أعطت الإسلام صوتا جديدا ، وإن كانت بالطبع لم تضف إلى الاسلام أركاناً فكرية جديدة ، ونظرا لمكانة مصر الثقافية

والحضارية فى العالمين العربى والاسلامي فقد انتشر هذا الصوت الذى يختلف عن الصوت الذى كان فى البادية .

إن إسلام مصر يمثل الاعتدال الذى عرف دائما عن مصر ، والسماحة وكراهية التطرف فى كل شىء ، فالمصرى متدين لكنه مثل جده الفرعوني القديم يقول « ساعة لربك وساعة لقلبك » ، إن المصرى هو الذى صنع من المناسبات الدينية المقدسة مهرجانا للابتهاج بالحياة مثل الموالد ومثل شهر رمضان الذى يقوم فيه المصرى بالصيام لربه والتقشف طوال اليوم ، ثم ما إن تغرب الشمس حتى يتفنن فى الاستمتاع بمباهج الحياة .







النيـــــــــــل ملكـــــــــــا

وأقول للأستاذ:

○ لقد تغلغل النيل في الكثير من أعمالك الأدبية ، ابتداء من المرحلة الأولى الفرعونية حيث الاحتفال الكبير بالنيل في رواية « رادوبيس » إلى وصفك للنيل أثناء مشاهد الحرب في « كفاح طيبة » .

حتى يكاد النيل يتحول فى روايات نجيب محفوظ الى رمز متجدد يحمل من المعانى والإيحاءات ما يعجز عنه أى رمز أخر يحمل معنى واحداً فقط .

وقد ذكرت لى مرة حين بدأ نظرك يضعف ، أنك لا تفتقد شيئاً قدر افتقادك لرؤية النيل الذى امتدت علاقتك به فى مختلف مراحل حياتك وظروفها المتنوعة .

فيقول :

□ إن أول ما تذكر مصر يذكر شيئان : النيل والأهرامات ، لكن النيل هو الأقدم لذلك فالنيل ليس من الأشيـاء التى يمكن غض الطرف عنها أو تجاهلها فى مصر ، ورغم أنني ولدت ونشأت فى حي شعبي بعيدا عن الحدائق والماء ، إلا أنني تربيت على عشق النيل منذ الصغر . فقد كانت والدتي حين تصحبني للفسحة تأخذني الي شاطىء النيل ، تماما كما كانت تأخذني لمشاهدة الآثار القديمة ،والمتاحف وأضرحة الأولياء .

كانت والدتي مغرمة بالخضرة وبالمياه ، وكانت نظرتها للنيل - تماما كنظرتها للآثار - بها مسحة من التقديس ،ولقد بهرت بالنيل وبجماله منذ الصغر ومازلت أذكر كيف كنت أتدلى من سور

كوبرى أبو العلا ، لأتفرج على تدفق مياه النيل ووالدتى ممسكه بى حتى لا أسقط فى الماء .

وفى مرحلة الصبا حين انتقلنا من حى الجمالية القديم الى العباسية ، كنت أنا وأصدقائى الجدد نخرج فى نزهات نيلية بالمراكب الشراعية فى ساحل روض الفرج ، وقد كان بإمكانك فى ذلك الوقت أن تستأجر قاربا كبيرا يسع ما يقرب من عشرين شخصا من ساعة الغروب وحتى الفجر بخمسين قرشا فقط !

كان أصدقائى جميعا خبراء فى العوم إلا أنا وأذكر مرة أنه لم يبق بالمركب غيرى بعد أن قفزوا جميعا الى الماء بلباس البحر ليسبحوا فى ضوء القمر ، وإذا بإحدى الغارات الجوية للحرب العالمية الثانية تفاجئنى وأنا وحدى وسط النيل .

فى هذه السنوات كنت قد انتقلت الى مرحلة الدراسة الجامعية ، وكنت أثناء فترة الراحة بين محاضرات الفترة الصباحية وفترة بعد الظهر لا أعود إلى العباسية بل أمضى هذه الساعات مع أصدقائى فى النيل بالجيزة . . كنا نستأجر قاربا ونجدف فى النيل وكان أصدقاء هذه الصحبة هم زملائى بالكلية الدكتور على أحمد عيسى أستاذ الاجتماع بالإسكندرية بعد ذلك ، وتوفيق الطويل ، وعبد الهادى أبوريدة ، وأديب مترى وأخرهم الدكتور حسين مؤنس أستاذ التاريخ المعروف والذى توفى أخيرا ، كنا جميعا بقسم الفلسفة ، وكان حسين بقسم التاريخ .

كان النيل بالنسبة لى فى تلك الأيام هو مكان «الفسحة» ، ووسيلة الترويح لكن فى تلك الفترة أيضا كانت المرة الأولى التى يصيبنى النيل بالرعب الحقيقى .

كنا نجدف فى النيل وإذا بإحدى سفن النيل تمر من جانب قاربنا الصغير ، ولعدم خبرتنا تصورنا أن أفضل وسيلة لمقابلتها هو أن نكون فى موازاتها ، لكن ذلك جعل قاربنا يكاد ينقلب على جانبه بسبب الأمواج التى أحدثتها السفينة ، وكنا سننقلب جميعا فى

النيل لا محالة ، ورأينا جميعا الموت بأعيننا ونزل أحد أفراد الشلة إلى قاع القارب وهو يقول : لا أريد أن أشاهد نفسى وأنا أموت .

كانت تجربة فظيعة جدا ولم ينقذنا من هذا الموت المحقق إلا على أحمد عيسى ، فقد كان أكبرنا سنا ، وكان قوياً وحاضر الذهن فأخذ المجاديف وقال لي أن امسك بالدفة وكأنه يصدر إلى أمرا عسكريا ، وكنت في هذه اللحظة قد جفت دمائي فأطعت أمره بلا تفكير ، وظل يصدر إلى الأوامر حول ما يجب أن أفعله بالدفة إلى أن أصبح القارب فى مواجهة موج السفينة ، وليس موازيا له وظللنا نجدف إلى أن وصلنا إلى الشاطىء ، وكأننا قد عدنا من الموت إلى شاطىء الحياة مرة أخرى .

○ ألم يتغير حبك للنيل بعد هذه التجربة ولو قليلا ؟

□ لأني كنت أشعر أن سبب ما تعرضنا له من خطر كان يرجع لخطئنا نحن ، وليس لغدر النيل أو قسوته ، فالنيل قوى لكنه خير ولا يغدر بأحد كالبحر .

لذلك فقد استمر عشقي للنيل رغم هذه التجربة التي لم أنسها طوال حياتي ، وأذكر مثلا بعد ذلك بسنوات طويلة أن صديقي الكاتب الساخر محمد عفيفي كان يستأجر عوامة في النيل يمضي فيها وقت الكتابة ، وحين تعرفت به في أواخر الأربعينات دعاني لزيارته فيها ، ولا تتخيل جمال الجلوس في العوامة الطافية فوق النيل ، والتي تحيطها المياه الرقراقة ، وكثيرا ما كنا نجلس على سطح العوامة مع بعض الأصدقاء العاملين مع محمد عفيفي في جريدته الفكاهية ، ونتحدث في أشياء كثيرة حتى ساعات متأخرة من الليل .

○ كأنك تصف يا أستاذ نجيب روايتك الشهيرة « ثرثرة فوق النيل » التي تقع أحداثها في عوامة في النيل .

□ لقد استوحيت هذا الموقف ليس فقط من عوامة محمد

عفيفي ، ولكن أيضا من عوامتي الشخصية ، فقد سكنت عوامة في بداية زواجي تحقيقا لأمنية تكونت لدى خلال ترددى على عوامة محمد عفيفي ، فقد أحضرت زوجتي من الإسكندرية بعد زواجنا عام ١٩٥٤ ، وسكنا عوامة في شارع النيل بالعجوزة ، وأمضيت في هذه العوامة أياما أعتبرها من أسعد أيام حياتي .

ولا أنسي أبدا حين كنت أفتح الشباك في الصباح فلا أرى السيارات ولا الشارع الاسفلتي ، وإنما المياه المتدفقة لهذا النهر الخالد ، ولا أستنشق أنفاس الجيران ولا عادم السيارات ، وإنما رائحة المياه الطازجة المليئة بالطمي ، وكان أمامنا على الجانب الآخر أشجار الكازوارينا الباسقة ، وعوامات الجيران الذين كان من بينهم علي ماهر (باشا) ، رئيس الوزراء الأسبق ، والمطربة المعروفة منيرة المهدية .

وقد كان من الممكن أن أمضي حياتي كلها في تلك العوامة ، لكني عدت في يوم لأجد زوجتي تمسك بابنتنا الصغيرة أم كلثوم وتقول لي : « لن أمضي يوما آخر في هذه العوامة » ! ، واتضح أن أحد جيراننا كانت له ابنة في سن ابنتنا ، وفي ذلك اليوم سقطت في النيل وهي تخطو من الشاطيء إلى العوامة ولقيت حتفها .

وهكذا تركنا العوامة وانتقلنا إلى شقة في إحدى العمارات الجديدة المواجهة للنيل في نفس الشارع .

○ لقد ارتبط النيل في الكثير من رواياتك بالموت ، ففي « بداية ونهاية» تنتهي الأحداث بإلقاء نفيسة لنفسها في النيل ، حيث تصف كيف ابتلعها النيل في جوفه وفقدت حياتها مثل ابنة جيرانك بالعوامة . وحتي في « ثرثرة فوق النيل » والتى كانت تعكس فترة القلق والاضطراب وعدم الاستقرار التي عاشتها مصر بعد حرب يونيو ١٩٦٧ ، فإن اختيارك للعوامة الطافية فوق مياه غير ثابتة قد أعطي الإحساس بعدم الاستقرار السياسى فى ذلك الوقت .

□ لكن خواطر ساكن العوامة في « ثرثرة » كانت مليئة أيضا بعشق النيل ، فالنيل ليس شيئاً واحداً وإنما هو متعدد المعاني ومتعدد الوجوه ، وقد كان النيل شديد التدفق قبل بناء السد العالي الذى أوقف الفيضان ، وكان له أشكال وألوان متعددة ، وفي بعض الأحيان كان ينخفض فترى الشاطىء كله حدائق خضراء ، ثم ترتفع المياه ويتغير لونها فيصبح بنيا داكنا بلون التربة ، أو أسود بلون الطمي القادم من قلب القارة السوداء . وفي بعض الأحيان كانت ترتفع المياه حتى تصل إلى مستوى الشارع فكنا نشعر أننا نسكن في فيلا وليس في عوامة ، كان النيل فى ذلك الوقت كائنا حيا يجدد نفسه طوال الوقت وكانت رائحته منعشة للنفس ، كما أننا لم نكن قد امتهناه كما نفعل الآن بإلقاء مخلفات المصانع في مياهه الراكدة ، وبالبناء على جانبه بالأسمنت القبيح حتى كدنا نخنق هذا النهر الخالد ، شريان الحياة في مصر الذى قدسه أجدادنا .

○ هل كان النيل فى ذلك الوقت يختلف من مكان إلى آخر ؟

□ بالطبع ، ففي رأس البر مثلا كان جمال النيل فى التقائه بالبحر ، وقد كانت هناك بقعة كنت أعتبرها من أجمل بقاع الدنيا ، هي أرض خضراء يلتقي عندها النيل مع البحر الأبيض المتوسط ، وكانت تنصب فيها السرادقات ويجلس الناس يتفرجون على هذا الالتقاء الرائع بين النهر والبحر .

وفي رأس البر فإن البحر للاستحمام ، أما النيل فقد كان للفسحة والشارع الرئيسي للتمشية كان يقع على النيل وليس على البحر .

○ أعرف أنك كنت دائما تهوى التمشية على النيل حتى فى القاهرة .

□ أوه . . لابد أنني مشيت في حياتي آلاف الأميال على النيل ، فقد كنت أمشي فى الصباح الباكر وفي المساء ، لكني كنت أجلس أيضا على النيل حتى عرفت النيل خير معرفة .

ثم يصمت لحظات يستعيد فيها ذكرياته ثم يقول :

□ إنني طوال فترة الصيف لم أكن أكتب بسبب حساسية كانت تصيب عيني ، وتجعل الكتابة لمدة ساعات متصلة عملية متعبة ، لذلك ففي أحيان كثيرة كنت في المساء أتمشي في شارع النيل بالجيزة حيث يقع سراى الرئيس الراحل أنور السادات ، وهناك كنت أتوغل حتى أصل إلى حافة الماء ، وكنت أحضر معي وسادة جلدية أجلس عليها حتى لا تبتل ملابسي ، وكنت أجلس أنظر إلى النيل ساعات متواصلة أنتظر ضوء القمر حتى منتصف الليل مثلا .

○ وحدك ؟

□ أنا والنيل . . لقد ذكرتني بما كنت قد نسيته . . إن النيل كان معشوقى فعلا .

○ كنت تجلس بالفعل حتى منتصف الليل ؟

□ في بعض الأحيان حين يكون اليوم التالي إجازة لا عمل فيه ، كنت أجلس حتى الفجر ، ثم أذهب سيرا على القدمين إلى قهوة الفيشاوى بالحي القديم أفطر هناك وأدخن الشيشة .

○ ماذا كان يدور برأسك وأنت جالس مع النيل ؟

□ كنت أفكر في كل شيء فهي لحظات صفاء وتأمل ، لكن معظم أفكارى كانت تدور حول أعمالي الأدبية التى كنت استعد لإنجازها عندما يحين موسم العمل في الخريف ، لقد كان النيل يلهمني الكثير منها .

○ هل كنت تدون ما كان يأتيك من أفكار في هذه الجلسات ؟

□ لم يكن معي لا ورق ولا قلم ، ولا كان الصيف وقت الكتابة أو التدوين ، لقد كانت جلساتي هذه مخصصة فقط للتأمل والتفكير .

والحقيقة أنني لم أكن العاشق الوحيد للنيل ، فقد كان الكثير من الناس في الصيف يجلسون على العشب الأخضر على شاطىء

النيل يغنون ويتسامرون، وكان الجزء الذى يشغله الآن كازينو قصر النيل لا تكاد ترى فيه موقع قدم من كثرة الناس .

أما أنا فكنت أجلس في مكان خلوى ، وحين تعرفت على «الحرافيش » بعد ذلك كنت في بعض الأحيان آخذهم معي إلى هذه المنطقة ، وكانت بها دائرة كالميدان كنا نجلس فيها نتحدث عن إحباطاتنا ، فقد كنا شبابا لا نجد فرصة لنشر أعمالنا الأدبية والفكرية . ومن كثرة حديث التشاؤم بيننا أسمينا هذا المكان «الدائرة المشئومة » .

كان ذلك قبل أن يلمنا محمد عفيفى مطر وتوفيق صالح فى منزليهما ، فقد كانت سهراتنا فى ذلك الوقت سهرات شوارعى !

○ من الغريب أن ارتباطك بالنيل استمر طوال هذه السنوات وفي مختلف الظروف التى مرت عليك ، حتى إن حادثة الاعتداء عليك في أكتوبر ١٩٩٤ ، كانت أمام النيل والمستشفي الذى نقلت إليه كان أيضا على شاطىء النيل ، وأذكر في زياراتي لك أنك حين بدأت تتماثل للشفاء، تركت عنبر العناية المركزة إلى غرفة على النيل ،وكنت تجلس في بعض الأحيان مع أسرتك أو أصدقائك في الشرفة على النيل .

□ لقد قال هيرودوت إن مصر هبة النيل ولولا النيل ما كانت حياتنا ذاتها ، لكني لا أكاد أرى النيل الآن من كثرة المباني التى رصت عليه ، والكازينوهات التى أقيمت على شواطئه ، وكم أتوق الآن إلى بقعة خضراء صغيرة يستطيع الإنسان أن يمشي فيها دون أن يعترض رؤيته للنيل شيء !

لقد كنا طوال حياتنا نتغنى بالنيل فقال عبد الوهاب : « إمتى الزمان يسمح يا جميل وأسهر معاك على شط النيل » وغنى لأحمد شوقي « النيل نجاشي » وغنت أم كلثوم : أنا وحبيبي يا نيل نلنا أمانينا ، مطرح ما يرسي الهوا ترسي مراسينا » وأيضا « ما لنا لا أحنا وأنت في الحلاوة مثيل يا نيل » .

لكن لا أحد الآن يتغنى بالنيل لأن لا أحد يعرفه . . فلا أحد يراه من كثرة ، ما أقيم حوله من مبان .



ويتحدث الأستاذ عن خصائص الشخصية المصرية فيقول :

□ إن أكثر ما يميز الشخصية المصرية هو قدرة المصرى على الصبر على المصائب أياً كان نوعها اجتماعية أو سياسية ، وهو يتفوق في ذلك على شعوب أخرى كثيرة ، فهو يعتبر أن المحن التى تمر به هى « مكتوب » عليه ، لكن مع ذلك فإن التاريخ المصرى لا يخلو من ثورات وتمردات لا تعد ولا تحصى .

وهذا فى رأيي يرجع للطبيعة فى هذة المنطقة من العالم ولجغرافية المكان وللتاريخ أيضا ، فنحن نسكن واديا منبسطا ليست فيه جبال مثلا ، وتاريخ المصرى مرتبط بالزراعة التي اكتشفها قبل غيره ، والزراعة هي أم الصبر فكل شيء له أوان ولا زرع ينمو قبل موسمه فما عليك إلا أن تزرع البذرة وتظل ترعاها متذرعا بالصبر إلى أن تؤتى ثمارها حين يحين موعدها المحدد . وهذا يختلف تماما عن المجتمع الصناعي الذى يعود جزء من نجاح أى عمل فيه إلى اختصار فترة الإنتاج بحيث يأتى الربح بأسرع ما يمكن ، وكلما أسرعت بالمكسب كسبت أكثر ، أما في الزراعة فكل شيء بأوان .

والمصرى أيضا متدين جدا ، وربما كان ذلك لأنه في فترات انتظاره الطويلة والتى فرضت عليه ألوانا من الصبر وجد أن عليه أن يفكر فى الكون وفي الخليقة وفيما بعد الموت وهذا هو باعث التدين ، لأنه وجد فى الدين الإجابة على جميع أسئلته : لماذا أحيا؟ ولماذا أموت ؟ وإلى أين أنا ذاهب ؟

وليس هناك في جميع الأديان القديمة دين أعطى أملا لأتباعه مثلما أعطى دين المصرى القديم الذى قال للمصرى : كل ما يحلو

لك في هذه الدنيا من طعام وشراب وأبناء وبنات وموسيقى وأشعار بإمكانك أن تأخذه معك إلى الحياة الأخرى .

كما أن المصرى إنسان وفي إلى أبعد درجة ، وتاريخه مليىء بما يشهد على ذلك ولنأخذ قصة قلاوون الذى خلعه أحد أعدائه من الحكم ، لكن لأنه كان يظهر بعض الميل نحو الشعب ، فإن الشعب رفض أن يتخلى عنه فخرج يطارد من خلعه ، وكان هذا رجلا غنيا فظل يقذف لمن يطاردونه بالمال فكان هؤلاء الحفاة الجياع يتركون المال ويواصلون مطاردته إلى أن فرغ ماله وتمكنوا من القبض عليه ، وأعادوا قلاوون إلى الحكم .

ثم يضيف :

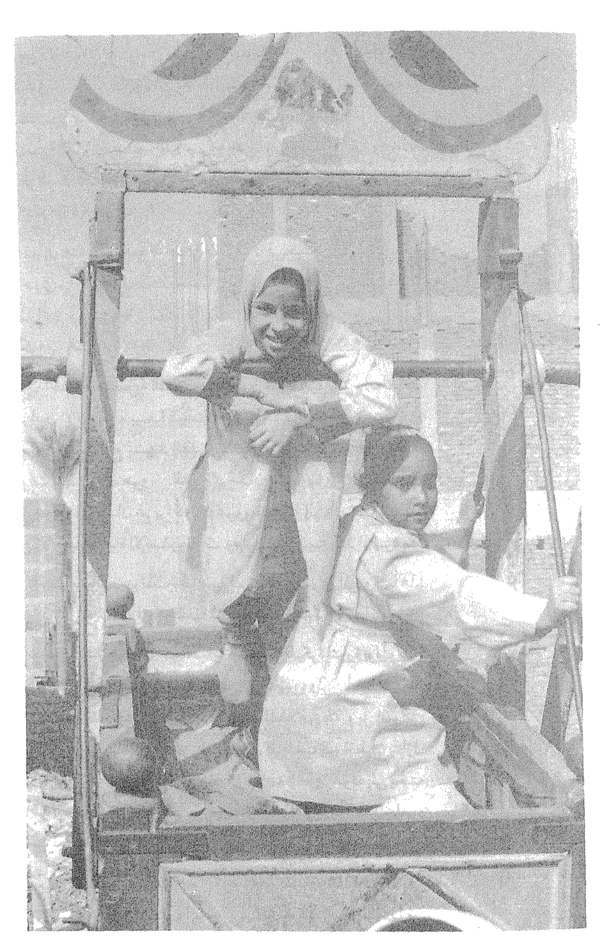
□ إني أجد أن روح الفكاهة من الخصائص الأساسية للشخصية المصرية ، فلا شك أن الإنسان الذى لدية صبر الانتظار فإن روحه تكون سمحه تميل للدعابة . وقد وجد الكاريكاتير على جدران بعض المقابر القديمة ، ليؤكد لنا أن روح الدعابة التى يتمتع بها المصرى الآن تعود إلى أجداده القدامي .

ولقد استعان المصري دائما على الملمات التى تقابله بالفكاهة والدعابة . ففى عصور القهر تجد النكتة السياسية منتشرة بشكل غير عادى ، وهي وسيلة سلمية لمقاومة ظلم الحاكم .

كما أن الفكاهة تساعد المصري أيضا على تحمل بعص متاعبه الشخصية مثل محدودية الرزق وباقى مشاق الحياة اليومية .

ثم يسألنى الأستاذ : وماذا ترى أنت من خصائص فى الشخصية المصرية ؟

○ فأقول إني أجد إلى جانب روح الدعابة التى تحدثت عنها هناك مسحة حزن لاتفارق المصري أبدا ، هو حزن لا يشابه أي حزن آخر ، إنه نتاج قرون من الأسي ممزوج بالحنين والوجد ، ويكاد يقترب من أن يكون حزنا فنيا . الحزن الذى تعبر عنه كلمه الشجن التى لا أجد لها ترجمة فى



أى من اللغات الأخرى ، وربما كان أقرب معنى لهذا النوع من الحزن هو ما يطلق علية البرتغاليون Soleded ولست أدرى من أين جاءهم هذا الشعور الشرقى المصرى القديم ؟ هل عن طريق العرب فى الأندلس؟لست أعرف فهو غير معروف في الثقافات الغربية ، وخاصة فى الولايات المتحدة الأمريكية حيث التفاؤل الأمريكى التقليدى وثقافة الابتسام Smile التي تميل إلى السذاجة .

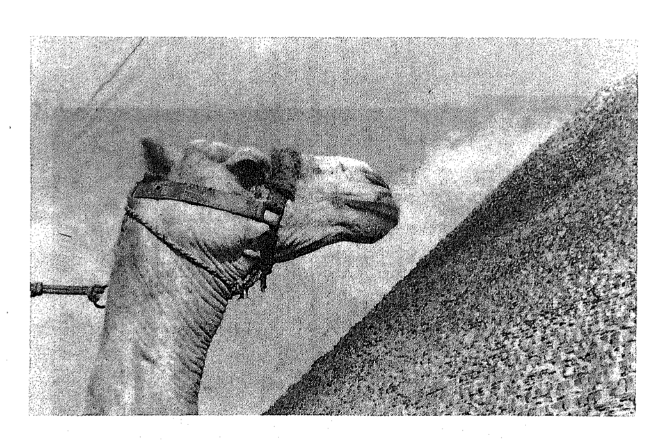
ثم إن هناك خاصية أخري قد تكون فى كثير من الشعوب الأخري ، لكنها ملحوظة بشكل خاص في المصريين منذ عهد الفراعنة وحتى الآن تلك هى العزوف الطبيعى عن العنف والكراهية الشديدة لإراقة الدماء .

إن الحضارة المصرية القديمة من الحضارات القليلة التى لم تعرف القرابين الآدمية ، بينما كانت بعض الحضارات الأخري تشق الصدر لكى تتمتع بمشهد القلب الآدمي وهو ينبض ، ولقد عشنا سنوات نتصور أن عروس النيل التى كان يلقى بها فى الماء كقربان لكى يجىء الفيضان غزيرا كانت عروسا أدمية إلى أن ثبت أنها لم تكن إلا دمية فالحياة الإنسانية كانت ومازالت مقدسة عند المصرى .

□ هذا صحيح ، وتلك الخاصية لم تترك المصرى إلى وقتنا هذا حتى إن ثوراته كانت فى معظمها ثورات بيضاء لم ترق فيها الدماء .

○ فأقول : لقد كان أحد أسباب الشعبية المبكرة لثورة يوليو عام ١٩٥٢ يعود ليس فقط الى تطلع الشعب إلى التغيير ، ولكن أيضا لأنها لم تقم المشانق للنظام القديم الذى يسعى الشعب للخلاص منه ، بل إن رأس هذا النظام ورمز الفساد فيه وهو الملك فاروق قد طلب إليه فقط أن يتنازل عن العرش ويغادر البلاد ، وقد كان فى وداعه أثناء صعوده إلى يخته الخاص الذي أقله إلى منفاه الأخير بإيطاليا نفس الضباط الذين خلعوه ليقدموا له التحية التى يستحقها ملك مصر .

ثم أقول : إنى أجد أن جميع خصائص الشخصية المصرية التى تحدثنا عنها موجودة بشكل واضح فى الشخصيات التى رسمتها فى



روايات مثل الصبر على الملمات التى تتسم بها الكثير من شخصيات ثلاثيتك الشهيرة ،وكذلك روح الدعابة التى لاتكاد تخلو منها أي من رواياتك بالإضافة للسماحة وكراهية العنف رغم أن هناك الجريمة فى بعض رواياتك مثل اللص والكلاب ،لكنها دائما حالة استثنائية دخيلة على الطبيعة ، فهل كنت تعني ذلك وأنت تكتب ، أم إن ذلك جاء بشكل عفوى ؟

فيقول نجيب محفوظ فى بساطة :

□ إنني لست «سوسيولوج» أو عالم اجتماع فلا أقول هذه صفات المصري وهذه حياته ،أى أنني لا أشرع فى محاولة لتصوير الشخصية المصرية بل أتعامل معها تلقائيا .

○ لكن أحدا لم يجسد الشخصيات المصرية مثلما فعلت أنت فى رواياتك .

□ إن تلك هى الشخصيات التى أعرفها ، هى التى عايشتها فى الأحياء القديمة على مدى أكثر من ثمانين عاما الآن ، هى شخصيات تحمل في وجدانها كل التراث القديم الذى كنا نتحدث عنه بخيره وبشره ، وأنا لاأعرف شخصيات غيرها فمن أين آتى بشخصيات أخرى ؟





وأقول لنجيب محفوظ :

○ رغم كل ما قلناه عن عزوف المصري عن العنف وكراهيته الشديدة لإراقة الدماء، فإننا نمر بمرحلة نشهد فيها قدراً كبيراً من العنف والإرهاب المرتبط بالدين .

فيقول :

□ إن الأديان نزلت من أجل المحبة والتسامح ، فإذا تطرقت إلى العنف والإرهاب فينبغي البحث فى الظروف الاجتماعية والسياسية التي أدت إلى ذلك ، ففيما أعلم لا أعلم دينا وسيلته العنف والإرهاب ، وليس هناك دين يمسك سكينا يضرب بها الناس ليحملهم علي اعتناقه، والإسلام في مقدمة تلك الأديان ألم يقل تعالي : لا إكراه في الدين ، ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر

○ لكن جميع الأديان شهدت مع ذلك مراحل عنف فى تاريخها ، وما يحدث الآن باسم الإسلام والذي وصل إلى حد القتل وحل دماء الأبرياء، وهو أمر خطير حيث وصل التفتيش في ضمائر الناس واستصدار الأحكام القضائية بتكفيرهم . . إن ذلك ليس ببعيد عن محاكم التفتيش الكاثوليكية مثلا .

فيقول في هدوء :

□ إذا نظرنا للوضع القائم الآن في العالم الإسلامي نجد أن هناك شعورا عاما بخيبة الأمل المتزامنة مع أزمة اقتصادية طاحنة ، وغياب للحرية السياسية فبعد معارك التحرر حصلت الكثير من دول العالم الثالث الإسلامية على استقلالها ، وبدأت تجرب مختلف طرق التنمية وعرفنا فى العالم العربي القومية العربية والتنمية الاشتراكية ،

لكن بانتهاء عقد الستينات بدأ كل ذلك يهوى أمام أعيننا ، فالقومية العربية ، تلك الايديولوجيةالعلمانية التى وحدت بين المسلم والمسيحي في العالم العربي انهزمت في حرب يونيو ١٩٦٧ خلال ست ساعات فقط ، و الفكر الاشتراكى كله بدأ يتداعى فى السبعينات والثمانينات حتى انهار تماما فإلى أين نتجه؟ من الطبيعي أنه في ظروف الأزمة يعود الإنسان إلى جذوره القديمة باحثا عن مأوى . . يعود إلى الحقيقة المطلقة التى لا يمكن أن تتهاوى مع الزمن مثل كافة الأفكار العلمانية الأخرى التى تهاوت .

إن هذا كله في رأيي تطور صحى ، أما الجانب المرضى فيه فهو اللجوء إلى العنف الذى وصل إلى حد الإرهاب ، لكن علينا أن نتذكر أن هذا الاتجاه هو فى الأساس رد فعل لأوضاع متردية ، وبقدر ترديها بقدر العنف الذى تتخذه ردة الفعل .

ويواصل نجيب محفوظ بلا مقاطعة مني :

□ إن الشاب الذى يكمل تعليمه ويخرج إلى الحياة متطلعا وفى النهاية يجد أنه لامكان له فى هذه الحياة التي كان يتطلع اليها ، فلا عمل له وسط أزمة البطالة القائمة ولا مسكن وسط أزمة الإسكان القائمة ، وبالتالى فلا عمل ولا زواج ولا استقرار ، فإلى أين يتجه؟ وماذا يفعل غير أن يحطم هذا المجتمع الذى يرفضه؟ أما إذا كان ذلك ممكنا أن يتم تحت دعوى دينية سامية فإن انجذابه إلى التيار يكون أقوى وأشد .

فأسأل :

○ بعيدا عن تلك الاعتبارات الاجتماعية والاقتصادية ، أليس هناك أيضا غياب الحلم في حياة اليوم ؟لقد كانت القومية العربية حلما نشأ عليه جيل بأكمله كان يتطلع إلى تحقيق الوحدة العربية بين كافة الشعوب العربية ، والاشتراكية كانت أيضا حلما يعد بالكفاية والعمل والرخاء للجميع ، فأين حلم اليوم بعد أن تحطمت أحلام الأمس؟ إننى حين أنظر حولي لا أجد أحداً يملك حلما يقدمه للناس إلا هذا الاتجاه الدينى

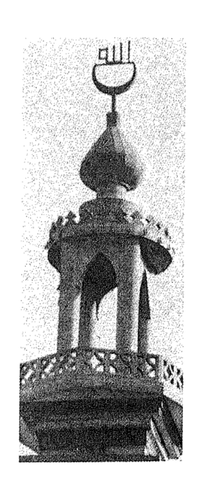
المتطرف ، ومع كل اختلافى المبدئى مع هذا الاتجاه إلا أن الإنسان لا يجازف بحياته إلا في سبييل تحقيق حلم .

□ هذا صحيح ، لكن الحلم تحول على أيديهم إلى كابوس فعلي يؤرقنا جميعا ، ليس فقط في مصر ولكن أيضا في الجزائر وفى السودان وفى إيران ، فكيف لنا أن نعيش مع هذا الكابوس ؟

○ هل ظاهرة الإرهاب تزعزع معرفتك الراسخة بهذا البلد أو ثقتك فى مستقبله ؟

□ لا لأن الطبيعة التى عاش بها هذا الشعب سبعة آلاف سنة سيكون لها الغلبة فى النهاية ، فهذه الظاهرة الدخيلة هي نتيجة لظروف طارئة ، وستزول بزوال الظروف التى أوجدتها .

○ هل تسمح لى أن أسألك بشكل مباشر عن واقعة محاولة الاغتيال التى تعرضت لها فى أكتوبر ١٩٩٤ ، فأقول لك كيف أثرت تلك الواقعة على اقتناعاتك السابقة ؟



□ لم تؤثر بشىء فإني أجد أن ثقتي بهذا الشعب مازالت كما كانت ، ونظرتي للإرهاب ورفضي له ما زالا أيضا كما كانا .

○ لكني أجد أن حياتك الآن قد أصبحت أكثر حرصا مما كانت قبل الواقعة حيث كنت تفتح بابك لكل من يريد الدخول لتحيتك ، أو لالتقاط الصور التذكارية معك ، كما كانت ندوتك الأسبوعية تعقد فى مكان عام ، وكانت مفتوحة لكل من يريد حضورها ولقد تغير كل ذلك الآن .

□ تلك ضرورات إجرائية فرضت عليّ ولم أخترها وهو ما يجب أن أتحمله ، لكنها لا تتصل من قريب أو بعيد باقتناعاتى الأساسية بهذا البلد ، ولم تغير معرفتي بشعبه .

ولا أجد كلاما أرد به على الأستاذ فأصمت ، وتعود بي الذاكرة إلى الوراء لأ تذكر يوم حاول أحد الشباب اغتيال كاتب مصر العظيم .

وأتذكر كيف هرعت إلى مستشفى الشرطة بالعجوزة لأطمئن عليه ، وتعود إليَّ تلك الساعات الطويلة الرهيبة التى قضيتها في تلك الليلة من

شهر أكتوبر عام ١٩٩٤ ، وسط جموع من الكتاب والمثقفين والصحفيين الذين توافدوا على المستشفى يتلمسون أخبار الكاتب الكبير من الأطباء أو الممرضين .

وتذكرت اليوم التالي حين كان الأستاذ لا يزال بعنبر العناية المركزة ، وكنت أجلس بقاعة الانتظار الكبيرة بالمستشفي مع السيدة عطيه الله زوجته وكريمتيه أم كلثوم وفاطمة ، وكانتا تقصان عليّ كيف أنهما أخذتا إجازة من عملهما ليظلا إلى جانب والدهما بالمستشفي ، رغم أنه لا يسمح لهما برؤيته إلا لمدة ثلاث دقائق فقط فى اليوم .

وفجأة أقبل اللواء وجيه عيسي نائب مدير الإدارة العامة للخدمات الطبية ، فاتجهت إليه أسأله عن آخر أخبار الأستاذ ففاجأني بقوله لي : فلتعرف منه الأخبار بنفسك لأنه يطلبك الآن .

فانطلقت صوب غرفة العناية المركزة لكنه استوقفني قائلا : انتظر إننا لا نسمح بالزيارة لكن حين أخبرنا الأستاذ أنك في الخارج طلب أن يراك ، لذلك نتمني ألا تزيد الزيارة على ٣ دقائق بالعدد وإلا سأضطر للتدخل .

ودخلت لأجد الأستاذ الكبير يقول :

□ أهلا وسهلا . . أهلا وسهلا . . وقبض بشدة على يدي وقبلنى فاغرورقت عيناى ورأيت على وجهه ابتسامته البشوش التى ألفناها ، فقلت له : إنني لا أصدق ما يقال يا أستاذ نجيب ، فها أنت سليم معافي كما عرفتك دائما ، فقال فى اقتضاب : الحمد لله . وكررها ثانية : الحمد لله .

○ ثم روى أديب مصر الكبير لأول مرة تفاصيل ما حدث له وقت الحادث ، فقال :

□ إنني لم أر الشاب الذى اعتدى على . . لم أر وجهه ، الذى حدث هو أنني وأنا أهم بركوب السيارة لأذهب لموعدى مع أصدقائى فى الندوة الأسبوعية ، وجدت شخصا يقفز بعيدا ،

وكنت قد شعرت قبلها بثوان معدودة وكأن وحشا قد أنشب أظافره في عنقي ، وقد دهشت ولم أدرك بالضبط ما حدث .

وأضاف الأستاذ :

□ لكني حين شاهدت هذا الشخص يرمي خنجرا كان في يده فهمت على الفور ما حدث ، وعرفت أن هذا الخنجر هو الذى كان في عنقى ، وبدأت أشعر بالدماء تنزف من عنقي فوضعت يدى على رقبتى لأوقف النزيف ، بينما انطلق صديقى الدكتور هاشم فتحى بالسيارة إلى مستشفى الشرطة المقابل لبيتى .

وأسأل :

○ **وماذا كان أخر شيىء تتذكره قبل ذلك ؟**

فيقول :

□ عند وصولنا السلم الذى توقفت السيارة عنده ، بعض الناس الذين لا أعرف من هم أصروا على حملى وأصررت أنا على السير ، ولا أكاد أذكر ما حدث بعد ذلك .

وابتعدت بالحديث عن التفاصيل الدامية للحادث لأسأل الأستاذ عن مشاعره تجاه ما حدث ؟

فقال على الفور :

□ إن شعورى مزدوج ، فمن ناحية أشعر بالأسف لتكرار جرائم الرأى ، فهناك الشيخ الذهبى والأستاذ مكرم محمد أحمد والسيد فرج فودة ، وأقول إن هذا ليس الطريق للتعامل مع الرأى . . إنه لشيء مؤسف جدا ومسيء جدا لسمعة الإنسان في العالم أن يؤخذ أصحاب الرأى . . أصحاب القلم هكذا ظلما وبهتانا . ومن ناحيةأخرى ، فإنى أشعر بالأسف أيضا من أن شابا من شبابنا يكرس حياته للمطاردات والقتل ، فيطارد ويقتل بدلا من أن يكون فى خدمة الدين والعلم والوطن .

ثم يسرح الكاتب الكبير ببصره بعيدا مسترجعا مرة أخري تفاصيل ما حدث ، ليقول :

□ إن الشاب الذى رأيته يجرى كان شابا يافعا فى ريعان العمر . . كان من الممكن أن يكون بطلا رياضيا . . أوعالما . . أو واعظا دينيا . . فلماذا اختار هذا السبيل ؟

ويسكت الكاتب الكبير قليلا فلا ألاحقه بالسؤال ، لكنه يعود فيقول :

□ لقد كنت متجها إلى لقاء أصدقائى فى الندوة الأسبوعية .

ثم يصمت فأوجه له سؤالى الأخير :

□ هل ستغير أسلوب حياتك بعد هذا الحادث يا أستاذ نجيب ؟ هل ستستطيع أن تذهب إلى ندوتك كل أسبوع وأن تسير وحدك فى الطريق بلاحراسة ؟

فينظر إلى فى وداعة وهدوء ويقول وكأنه يعبر عن أمنية غالية :

□ أرجو ألا أرغم على تغيير أي شيء فى أسلوب حياتى واختلاطى بالناس وتمشيتى بينهم فى الشارع .

ثم يضيف :

□ سيعز على كثيرا أن أرغم على الابتعاد عن الناس ، وأن تكون بينى وبينهم حواجز أمنية . إن حياتى كانت دائما وسط الناس ولم أر منهم إلا كل الحب ، فقد كانوا دائما يقبلون علىَّ وأنا أسير فى الطريق ويصافحوننى ويطمئنون على لماذا تريدينى أن أحرم من كل ذلك ؟ لماذا أحرم من دفء المشاعر الإنسانية التى طالما أحاطنى بها الناس؟

وتظهر على الفور فى عيني أديب مصر الكبير نظرة تصميم واضحة وهو يقول :

□ لا . . لن أغير أسلوب حياتى . . والله الذى حفظنى إذا أراد أن يحفظنى سيحفظنى ثم يضيف ضاحكا : إما إذا كان الله يريد الأخرى فنحن أيضا نحب أن نلقاه .



اللـــــه والمعـــــرفـــــة

إن نجيب محفوظ هو بلا شك أحد رموز المعرفة والتنوير فى حياة الشعوب العربية، وتعتبر المعرفة هى أحد المحاور الأساسية التى يقوم عليها أدبه ، وهى تتخذ فى أعماله سمة الأداة الرئيسية للتقدم والارتقاء، وكذلك لسعادة الإنسانية ، فهى العالم الروائى لنجيب محفوظ

من يصل إلى المعرفة هو الذى يملك أسباب القوة ويتحكم فى مصيره، وإن كان فى كثير من الأحيان يجد نفسه فى حالة صراع مع القديم ، أما من لا يملك المعرفة فهو الذى تتخطاه الأحداث فيبقى وحيدا على جانب الطريق سرعان ماينذثر .

وإذا كان لنا أن نعتبر شخصية كمال عبد الجواد فى ثلاثية محفوظ الشهيرة تعبيرا عن المؤلف نفسه كما يعتقد بعض النقاد ، فإن كمال يؤمن بالعلم والمعرفة ويدافع عن أحدث النظريات العلمية أمام من لا يعرفون ، ومنها نظرية الارتقاء لداروين ، وهى نظرية نجد أن الثلاثية كلها قد قامت عليها حيث يتطور المجتمع ويتغير من جيل إلى جيل عبر الروايات الثلاث بين القصرين وقصر الشوق والسكرية .

وإذا كانت الثلاثية قد ظهرت فى أولى مراحل نجيب محفوظ الواقعية، فإنه لم يتخل فى مراحله الأخيرة عن إيمانه الراسخ بأن التقدم والارتقاء هما سنة الحياة . ففى رواية الحرافيش يوجه لنا الكاتب سؤالا استنكاريا واضحا حيث يقول : لو كان لشىء أن يبقى على حال فلم تتغير الفصول ؟ !

وربما كانت رواية محفوظ الشهيرة أولاد حارتنا التى اتخذت السلطة الدينية موقفاً معاديا لها هى أكثر روايات الكاتب الكبير إصرارا على أهمية المعرفة فأحد أبطالها الرئيسين هو عرفة (المشتق فى اللغة العربية من كلمة المعرفة)Maarefa الذى يأتى لأبناء الحارة بأعمال وأفعال

مبهـرة، كـأعمـال السـحرة وهـو يبـقى فى النهـاية بعـد أن تموت بقيـة الأبطال .

على أن المعرفة عند نجيب محفوظ رغم أهميتها فهى مجرد نقطة ماء فى محيط اللا معرفة المترامى الأطراف ، وهى شعاع ضوء وسط ظلمات الكون اللا نهائية .

يقول الأستاذ :

□ إذا نظر الإنسان إلى ما فى السموات والأرض ونظر إلى نفسه سيجد أن نظير كل موقع معرفة هناك محيط من اللا معرفة ، فالمعرفة بطبيعتها غير كاملة خاصة فى العلم، فقد يعرف العلماء قوانين طبيعية كثيرة دون أن يعرفوا ماهية الطبيعة ، أو لماذا وجدت ؟

ثم يضيف محفوظ الذى كانت دراسته الجامعية في مجال الفلسفة :

□ على أن هناك مناطق من المعرفة يعتقد فيها أن المعرفة كاملة وأنه لا مجال هناك لما لا يعرف المرء ، أى أن صاحب المعرفة في هذا المجال قد أحاط بالأشياء من جميع جوانبها فعرف ماهيتها ، وكيف وجدت ، والحكمة من وجودها . . تلك هي منطقة العقائد ، فصاحب العقيدة هو على قناعة راسخة بأنه وصل إلى كنه الأشياء جميعا .

○ ألا يمكن في مجال العقيدة إذا تبحر الإنسان فيها كثيرا أن يكتشف أن معرفته بها قليلة وأنه هناك مجال كبير من اللامعرفة ما زال بعيد المنال؟

يمكن أن يحدث هذا إذا فكر الإنسان فى العقيدة بعقله ، فقد يشعر الإنسان أن الإحاطة الكاملة بها أكبر منه ، وقد يساوره الشك وتكون تلك تجربة حياتية وجودية ليست بسيطة .

لكن فى أحيان كثيرة تقترن العقيدة بالروح والقلب أكثر مما تقترن بالعقل . فالصوفيون مثلا لا يفكرون فى عقيدتهم على هذا النحو وإنما هم يعيشون تجربتها ، والتجربة عندهم طبقات ،

والصوفى يمضى بحياته من طبقة الى طبقة فهو يتصوف ثم يزهد ثم يدخل طبقة الفقر ثم الرضا ، وهكذا إلى أن يصل إلى ما يعرف بالتجلى .

على أن المعرفة وعدم المعرفة ككل الأضداد متصلتان ببعضهما البعض ، فالتجربة الصوفية قد تبدأ أصلا بالشك الذى هو درجة من درجات عدم المعرفة ، والمثال على ذلك هو الإمام الغزالى المفكر الإسلامى المعروف الذى سمى عدو الفلسفة ، وإن كان هو فى رأيي خير من شرحها ، ومؤلفاته تقترب من الـ ٢٠٠ كتاب طاف فيها بجميع مجالات المعرفة ، وانتهى الأمر إلى الشك الفلسفي الذى أسلمه إلى التصوف فوجد فيه اليقين ، لكنه يقول إن الوصول إلى المعرفة الكاملة لا يكون بالتعلم ، وإنما بما أسماه « الذوق» أى أن «الذوق » أى أن يذوق المرء الحقيقة لكي يعرفها ، فهناك فرق بين أن تعرف ما هى الصحة وشروطها وبين أن تكون صحيحا ، والمعرفة الحقة عند الصوفية هي أن تعيش الحقيقة لا أن تعقلها .

○ هل يفضي عدم المعرفة دائما إلى المعرفة ؟

□ ليس بالضرورة فعدم المعرفة في بعض الأحيان قد يكون هو البداية وهو المنتهى كما في العلم حيث إن العالم وهو يبحث الظاهرة لا يجب أن يسأل عن الهدف من تلك الظاهرة ، لأن البحث عن الهدف يخرج من نطاق العلم ليدخل مجال الفلسفة فالعالم يبحث عن القوانين والنظريات التى تحكم الظاهرة وتسيرها بحيث يستطيع القانون أن يعيد التجربة ، فبمعرفة قانون الجاذبية تستطيع أن تطير في الهواء أو تغوص فى الماء ، ولكن العلم لا يستطيع أن يسأل ما هي الجاذبية؟ ولا لماذا وجدت ؟

○ أليس فى الفلسفة قدر من المعرفة الكاملة من حيث إنها كانت دائما تبحث عن قانون القوانين ؟

□ كان ذلك ممكنا أيام أرسطو حين كانت العلوم بسيطة نسبيا ، وكان الفيلسوف يحيط بها جميعا وهو مازال في شبابه ، وبعد

ذلك يلاحظ ما يربط بين مختلف هذه العلوم فيصل إلى الحقيقة المطلقة ويكون على أساسها فلسفته ، وقد أصبح ذلك الآن مستحيلا ، لذلك فإن فكرة النظام الفلسفي Systeme Philosophique قد اختفت وأصبحت الفلسفة مقصورة على التفكير فى فرع واحد من العلوم ، وربما آخر تصور فلسفي شامل للكون والناس هو تصور هيجل ، فبعده انفجر العلم وقال للفلسفة : «مكانك» !

○ وجدنا فى رواياتك في مرحلة ما بعد حرب ١٩٦٧ أن بعض المعرفة السابقة قد انقلبت إلى عدم معرفة ، وقد بدا ذلك واضحا فى رواية ثرثرة فوق النيل على سبيل المثال .

□ كانت تلك مرحلة أصبنا فيها على المستوى السياسي بيأس شديد ، وبخيبة أمل لم تكن متوقعة بأى حال من الأحوال ، فقد كنا معتمدين على قوتنا ، وعلى قوميتنا وعلى مذهب اشتراكي جعلنا على صداقة وثيقة بثاني أكبر أمم العالم ، وكان ذلك يشكل منظومة معرفية اهتزت بشدة بعد هزيمة ١٩٦٧ ، وظهر أن تلك الاقتناعات التى عشنا عليها سنوات لم تنفعنا حين وضعت في الاختبار ، وهكذا تغيرت معرفتنا بهذه الاقتناعات الثلاث حيث اتضح أن القوة التى كنا نتصور وجودها باعتبارنا أكبر قوة ضاربة في الشرق الأوسط هي غير موجودة ، وإيماننا بالقومية العربية لم تنجدنا في محنتنا . أما علاقتنا بالاتحاد السوفيتي فقد اكتشفنا أنه هو أيضا يهاب مثلنا .

لقد كانت تلك المرحلة مرحلة مراجعة لمعارفنا الأساسية فى ظل الحقائق التى تبدت أمامنا واضحة وضوحا مخيفا ، وقد بدأ يحل عندى بعد ذلك محل القومية بمفهومها الرومانسى التابع للقرن التاسع عشر مفهوم آخر حديث أكثر عملية وبراجماتية يعتمد على تحقيق المصالح المشتركة بين الأقطار العربية متخذة من رباط اللغة المشتركة والثقافة والدين وسيلة فعالة لتحقيق ذلك .



والقوة التى تهاوت أوهامها أمامنا جعلتنى أؤمن أكثر بالسلام كوسيلة أكيدة لتحقيق التقدم والرخاء ، أما الاشتراكية فقد أصبحت أؤمن منذ ذلك الوقت وقبل أن يسقط الاتحاد السوفيتي بأن أى طريق يؤدى إلى العادلة الاجتماعية هو طريق مقبول حتى وإن جاء من الرأسماليين ، ففي الكثير من الدول الرأسمالية يوجد من الخدمات العامة ما عجزت عن تقديمه بعض النظم الاشتراكية .

إن ما سقط حقيقة فى الاتحاد السوفيتي وأوربا الشرقية منذ عهد قريب سقط عندنا قبل ذلك بعقدين من الزمان ، وهو لم يكن مجرد سقوط إحدى النظريات السياسية لكنه كان في الحقيقة سقوطا ل«الدوجما » فليس هناك اشتراكية جيدة ورأسمالية سيئة لكن هناك أهدافا سامية لا اختلاف عليها وكل من استطاع تحقيقها فهو جيد .

لكن ما إن وصلنا إلى تلك المعرفة حتى تبدى أمامنا مرة أخرى عدم المعرفة ، وذلك في المعطيات الجديدة للعصر الجديد ، وأصبح علينا مثلا أن نعرف ما هو النظام العالمي الجديد ؟ وما هي اتفاقية «الجات » ؟ وأين سيكون موقعنا منها ؟ وهل ستفيدنا أم ستضرنا وهل نملك حرية الحركة إزاء هذه المعطيات الجديدة أم إنها مفروضة علينا شئنا أم أبينا .

وعلى مستوى السلام فقد اتجهنا إليه بشكل واضح ، وقام الرئيس السادات بمبادرته المعروفة عام ١٩٧٧ ، ولكن هل إسرائيل ستستطيع الوصول إلى مرحلة التعايش مع هذا السلام هي الأخرى أم إن ما تسعى إليه هو مجرد نوع من السيادة في المنطقة ؟ أي هل ستنجح إسرائيل في أن تصبح دولة شرق أوسطية تنتمي لمحيطها الجغرافي أم إنها ستظل أشبه بالقلعة المنعزلة كالقلاع الصليبية التى قامت فى نفس المكان في العصور الغابرة ثم ما لبثت أن غلبتها حقائق المنطقة التى زرعت بها ، هذا أيضا مما لا نعرفه .

هناك بالطبع من يدعون المعرفة من الآن فيقولون إن اسرائيل إلى زوال أو إن السلام والتعاون سيحلان بينها وبين كل جيرانها ، لكني أعتقد أن تلك المعرفة سابقة لأوانها وهي متأثرة بعواطف سابقة ،

وأنا أفضل أن أترك التجربة تفصح عن نفسها ، ففي مثل هذه المسائل فإن المعرفة لا تأتي إلا من التجربة والمعايشة ، والمعرفة السابقة لا يجب أن تؤثر علينا في ذلك حتى لا تفسد التجربة .

○ ما هي بداية عهدك بالمعرفة ؟

□ أذكر أنني قد اقتنيت عام ١٩٣٠ أى قبل ٦٥ عاما كتابا أشبه بدائرة المعارف يسمى «المعرفة الجديدة » New Knowledge ، وقد كنت شغوفا جدا بهذا الكتاب ، فقد كان عمرى أقل من الـ ١٨ عاما ، وكان الكتاب يحيط بكل الأنشطة الإنسانية التى كانت تساورني فيها الأسئلة ، من علوم وفنون وآداب ، ولقد احتفظت بهذا الكتاب طوال حياتي لأنه كان من الكتب التى نقلتني في مجالات كثيرة من حالة اللامعرفة إلى حالة المعرفة .

ولقد عدت منذ سنوات قليلة إلى هذا الكتاب ، فعجبت لقدم المعلومات التى كان يحويها والتى عفي عليها الزمان حتى أصبحت « قديمة كوهنة » .

كذلك كانت هناك سلسلة من الكتب في الثقافة العلمية أصدرها صحافي كان معروفا في ذلك الوقت اعتقد أنه لبناني فى الطبيعة ، الكيمياء ، الحيوان ، النبات ، الفلك ، وهكذا ، وقد كانت هذه السلسلة هي الأخرى إحدى سبلي الأولي للثقافة العلمية ، وقد استفدت منها استفادة كبيرة جدا .

وأذكر مثلا أن أحد الاكتشافات الجديدة التى كانت تلك السلسة تبدو فرحة جدا بها كانت الفيتامينات ، ولا أذكر في الطبيعة إن كانت قد وصلت إلى نظرية الاحتمالات أم إنها توقف عند النسبية .

○ وفي مجال الأدب ، كيف كانت بداية رحلتك ؟

□ كانت البداية احساسا مؤلما بعدم المعرفة ، وبشغف كبير بالاستزادة من الفنون والأداب . وأذكر أنني كنت وأنا طالب بالمدرسة أضع قائمة للقراءة تضم أهم الأعمال التى عليَّ أن أقرأها ، لكن مع قراءتي كانت هذه القائمة تزداد ولا تقل ، فقد كان كل

كتاب جديد أقرؤه يفتح عيني على كتب أخرى أجهلها ، وكنت أشعر دائما بأن الجهل يطاردني ، وأنا أتعلق بأذيال معرفة بسيطة ، رغم أنه لم يمض يوم في حياتي دون أن أحصل فيه معرفة جديدة .

ولقد توصلت في بداية حياتي إلى كتاب يسمي Outline of Literature لمؤلف يدعى Drinkwater وكتاب ثان بعنوان Outline of Art فكان الأول يقدم الأدب من وقت الإغريق إلى عهد مارسيل بروست ، وقد وضعت نصب عيني أن أقرأ لكل قمة من القمم التى حواها الكتاب القمة الخاصة بها ، وبالفعل قرأت كل ذلك ، لكني كنت أكتشف أن معرفتي بشكسبير مثلا لا يمكن أن تعتمد على قراءة عمل واحد له حتى ولو كان هذا العمل هو إحدى قممه ، والشيء نفسه بالنسبة لديكنز أو موليير أو صفوقل أو غيرهم .

أما في الأدب العربي فإن معرفتي بدأت بالتراث من القرآن والأحاديث إلى الشعر الجاهلي وانتهاء بأساتذتنا طه حسين والعقاد والمازني وهيكل وتوفيق الحكيم ، ومعظم هؤلاء قرأت أعمالهم كلها مثل المتنبي والجاحظ وأبى العلاء المعرى الذى كان الشك وعدم المعرفة هما حياته كلها، كما استهوانى أيضا البحترى وأبو نواس وبشار بن برد .

وأستطيع أن أقول إن اقتناعاتى بالفن والأدب هى من المعارف التى لم تتزعزع طوال سنوات حياتى ، باعتبارها نشاطا إنسانيا ساميا ونبيلا لا غنى عنه من أجل سلامة الإنسان .

○ وأى معارف أخرى غير الأدب بدأت بها حياتك ولم تكتشف أنها عدم معرفة؟

□ هناك فى حياتى بعض الثوابت مثل الوطنية ، فمهما اختلفت اقتناعاتى السياسة وتبدلت إلا أن إحساسى الوطنى هو حقيقة لاتتغير ولا تتبدل ، فإني أنتمي لجيل كانت السياسة جزءا من تكوينه . ففي بدايات القرن كانت قضية الاستقلال وجلاء القوات الإنجليزية حقيقة من حقائق الحياة ، وكان الزعيم سعد زغلول هو

رمز هذه القضية بل كان رمزا للوطنية ذاتها ، ولذلك فقد نشأت على حب مصر ، وحتى الاشتراكية فى سنوات النضج لم تنجح فى زعزعة هذا الشعور بالوطنية الذى كان حقيقة ثابتة فهناك مثال من جعلوا الاشتراكية العالمية تزيح الوطنية ، لكن الوطنية وإن اتجهت عندى إلى العالمية لأنها ليست وطنية شوفينية إلا أنها لا تذوب أبدا فى هذه العالمية . وقد وجدنا أن الوطنيات التى كانت قد تصورت أنها ذابت فى الاتحاد السوفيتى قد عادت مرة أخرى تطل برأسها كحقيقة ثابتة لايمكن إنكارها .

وإنى لأشعر بأن معرفتى بمصر ليس بها أي مناطق جهل أو عدم معرفة ، فلا أستطيع أن أقول إن هناك ما لا أعرف فيما يختص بمصر ، وأنا لا أقصد هنا المعرفة الإحصائية الموجودة فى الأرقام والبيانات ، وإنما أقصد المعرفة الكلية التى تجىء من القلب .

○ ما هى مساحات اللامعرفة فى عقل نجيب محفوظ ؟

□ مساحات كبيرة جدا ، بل إن مساحات عدم المعرفة عندى أكبر بكثير من مساحات المعرفة ، لكن لدى غريزة تتطلع دائما الى المعرفة وأنا حريص عليها كهدف أساسى من أهداف حياتى ، فإذا كان الإنسان حيوانا ناطقا فذلك يعنى أنه حيوان معرفة ، وبدون المعرفة حرصا وبحثا ، وتفكيرا وشكا ويقينا يصبح الإنسان حيوانا .

إننا بلا شك قد بدأنا مرحلة في تاريخنا ، التفاوت بين الناس فيها هو تفاوت في المعرفة وليس في القوة . واليابان وألمانيا هما مثلان واضحان ، فقد فرضا وجودهما ليس بالقوة ، فاليابان ليس لها جيش مثلا ، ولكن بالمعرفة من علوم وتكنولوجيا .

○ ماذا فعلت المعرفة بالإنسان خلال القرون الطويلة الماضية ؟ هل أسعدته أم كان أكثر سعادة حين لم يكن يعرف ؟

□ أنا من المؤمنين بالعلم وبدوره الهام في حياة الإنسان ، وأرى أن المعرفة قد أوجدت للإنسان ثروة لا تقدر بثمن ، فقد عرفته أولا



بنفسه وبقوانينها الخفية ، وعرفته بما يحيط به من مخلوقات أو من عناصر الطبيعة ، وتلك معارف جليلة الشأن وجليلة الفائدة ، أما إذا كانت هذه المعرفة قد تسببت في تعاسة الإنسان فهذا لأنه استخدمها في التلف ، وهذا يتعلق بأخلاق الإنسان أكثر مما يتعلق بالمعرفة ذاتها التى هى ثروة في يده تزداد يوما بعد يوم . . انظر إلى استغلالها في جوانب حياتنا ، فما بدأ تكنولوجيا تستعصي على الإنسان العادي أصبح الآن جزءا من حياتنا اليومية .

وينهي الأستاذ حديثه قائلا :

□ أنا مع المعرفة ، فهي طوق النجاة الوحيد وسط محيط عدم المعرفة المخيف والمتلاطم الأمواج الذى قدر لنا العيش فيه .

○ هل مرت عليك لحظات شك على مستوى العقيدة ؟

فيقول :

□ نعم

ثم يضيف

□ كان ذلك في مقتبل العمر حين أردت أن أخضع عقيدتي للعقل والمنطق والعلم . كانت تلك فترة طويلة وأليمة ، لكني خرجت منها كما خرج الغزالي أى خرجت بقلبي لا بعقلي خرجت منها باليقين ، لكنه يقين الإيمان ، أما العقل فقد سحبه اليقين وراءه .

○ كم دامت فترة الشك هذه ؟

□ أربع أو خمس سنوات .

○ هل انعكس ذلك على أي من كتاباتك ؟

□ فى تلك الفترة لم أكن قد بدأت الكتابة بعد ، لكنك يمكن أن تجد لها أصداء فيما بعد في روايات مثل «الطريق » أو « الشحات » ، حيث محاولة معرفة المطلق معرفة عقلية ، وهي محاولة تفشل في

الروايتين، في « الطريق» يسعى البطل لمقابلة والده ليتعرف عليه وليبادله السلام لكنه لا يصل إليه أبدا رغم شعوره الأكيد بوجوده .

أما في « الشحات » فهناك خطوة متقدمة على ذلك هي أن البطل يتنازل عن المطلق حين يشعر به بقلبه ، أى يتنازل عن المعرفة العقلية في مقابل المعرفة القلبية بعد أن يكتشف البطل في نهاية الرواية أن هناك معرفة أخرى هي المعرفة القلبية .

○ بعد كل ما حققته البشرية من تقدم وتكنولوجيا . . هل ما زال هناك مكان في عالمنا المادى هذا للدين ؟

يقول الأستاذ دون لحظة تردد :

□ بل دعني أقول لك إنه بسبب هذا التقدم الذى سخر للإنسان قوة هائلة ، لم يكن يسيطر عليها من قبل ولم يكن يتصورها حتى فى الخيال ، أصبحت ضرورة الدين أشد ، لأن هذه القوة إما أن يراعى فى استخدامها شىء من المبادىء الإنسانية والأخلاقية ، أو ستخضع لتقدير العقل والمصلحة وحدهما ، والعقل والمصلحة بعيدا عن المبادىء قد تنشأ عنهما الكثير من الكوارث مثل الحربين العظميين مثلا اللتين كان الدافع وراءهما هو المصلحة ، إن ما نراه الآن حولنا من جرائم وأحداث اغتصاب وأعمال عنف إنما هو نتاج لانفصال العقل والمصلحة عن المبادىء . . أما حين تخضع قوة الإنسان للمبادىء الدينية فإنها تصبح لخير الإنسان .

○ أوليس الدين بهذه الصورة ـ كمنظومة من المبادىء ـ يمكن الاستعاضة عنه ببعض الفلسفات الوضعية الحديثة التى تنطوي هي الأخرى على المبادىء الإنسانية والأخلاقية ؟

هناك من الفلسفات ما يدعو إلى المبادىء العامة هذا صحيح ، لكن أغلبها متأثر بالأصل الديني . . فلم يكن جان جاك روسو مثلا بعيدا عن المسيحية ولا كان فرانسيس بيكون ، على أن ما يقدمه الإنسان من اجتهاد ليس مثل ما يتلقاه وهو مؤمن بأنه آت من رب

هذا الكون ، هناك فرق كبير بين الاثنين ، لذلك تجد مبادىء بعض الناس أحسن ما تكون ، لكن أصحاب الإيمان وحدهم هم الذين يموتون في سبيل المثل والمبادىء النبيلة ، فوراء التضحية دائما إيمان وليس مجرد اقتناع عقلي ، وهو ما جعل الفلاسفة أنفسهم يطالبون بالدين مثل الفرنسي فيكتور كوزان الذي قال في القرن الماضى إننا في حاجة إلى الدين من أجل الدين .

○ **إذن فالفارق بين الفلسفة والدين هو الإيمان بوجود الله .**

فقال مبتسما :

□ وهل هذا فارق بسيط ؟ . . إن الذى يخلق المبادىء بعقله قد يتشكك فيها ، قد يقول لنفسه ما الذى يلزمني بهذا ؟ . . ولماذا أضحي بلذتي وسعادتي السريعة ، وكافة الفوائد الأخرى من أجل بضعة أفكار ؟ . . لكن حين تكون المبادىء مستوحاة من الإله صاحب الكون وخالق الناس ، يكون لها معني آخر . .

ثم يضيف :

□ الله هو الذي يعطي للقيم معناها . . الله هو الذي يعطي الوجود معناه . . بدونه لا معنى للوجود . . لا معنى للقيم . . وبديله هو العبث . . اللا معنى .



من الثورة إلى الديموقراطية

وقلت لنجيب محفوظ :

○ لقد عبرت في أعمالك عن أهم حدثين في التاريخ الحديث للشعب المصرى، وهما ثورة ١٩١٩ ، وثورة ١٩٥٢ . فماذا تمثل لك كل منهما ؟

قال :

□ في سني الصغير كانت ثورة ١٩ تمثل لي مجموعة من الناس يتجمعون ويهتفون ويهجمون علي بعض المنشآت ثم يُضربون بالرصاص وتسيل دماؤهم وكنت أرى الخيالة الإنجليزية في أيديهم البنادق التى يطلقونها على المصريين ، مازلت أرى هذه الصورة واضحة في مخيلتي منذ سن السابعة ، وإن كنت في ذلك الوقت لم أكن أفهم هذه الأحداث .

كانت هذه هي أول صورة للثورة في ذهني ، لكن مع تقدم السن وخلال فترة حياة سعد (باشا) ثم بعد ذلك مع النحاس عرفت أن الثورة قامت من أجل الاستقلال الخارجي عن الاستعمار الإنجليزى ، وأيضا من أجل الاستقلال الداخلي بيننا وبين حكم الملك المستبد ، وقد اتضحت لي معالم الثورة كاملة وأنا مازلت في سن الصبا وعرفت أن الإنجليز يحاربوننا حتى لا ينسحبوا من مصر كما أن أعوان الملك كانوا يحاربوننا حتى لا يتنازلوا عن السلطة .

أما ثورة ٥٢ فكانت ثورة من نوع آخر ، أخذناها نقطة نقطة ، أولا من الناحية الوطنية ، من ناحية الكرامة الوطنية كانت شيئا عظيما جدا فهي في ذلك امتداد للحركات الشعبية التى كنت أشاهدها وأنا طفل ، وقد مكنها الزمن من تحقيق انتصارات أكثر

وأكبر ، لكن من حيث علاقتها كنظام حاكم بالشعب فقد كانت في رأيي استمراراً للنظام الملكي ولم أستطع حتى الآن أن أغفر لها ذلك .

إن ثورة يوليو قضت على النظام الملكي البائد، وأسست نظاما جمهوريا حديثا وقضت على الفساد السياسي والاجتماعي الذى كان سنة الحياة العامة في البلاد في ظل حكم الملك فاروق ، وأقامت نظاما جديدا يعلي من قيمة العمل والتعليم والتقدم بدلا من النسب والمال والتخلف لم يقف تأثيره عند حدود مصر فقط ، وإنما امتد ليشمل سائر الوطن العربي ، فكيف كانت الثورة امتدادا للنظام الملكي ؟

كان ذلك في جانب محدد وهو الالتزام بالدستور، فإن السمة الأساسية للنظام الملكي القديم كان عدم الالتزام بالدستور ، وهو ما جعل القوى الوطنية في حالة صراع مع الملكية حيث كانت تطالب بأن يلزم الملك حدوده ويحكم البلاد وفق الدستور . وأنا أرى أن هذا الجانب في ثورة يوليو ٥٢ لم يختلف كثيرا عما كان في السابق .

لقد حققت ثورة يوليو الكثير كما قلت ، بل حققت ما لم تستطع تحقيقه الحركة الوطنية المصرية طوال تاريخها من الاستقلال في الخارج إلى مجانية التعليم في الداخل، لكن خلافي معها كان في علاقتها بالشعب في نظام حكمها .

قلت :

○ **هل تعتبر نفسك بحكم انتمائك لثورة ١٩ خصما لثورة ٥٢ ؟**

قال على الفور وقد علت وجهه علامات الغضب :

□ لا . أنا لم أكن أبدا ضد ثورة ٥٢ ، ولا أعتبر نفسي من خصومها ، لكني لم أكن أيضا معها بالكامل، لقد كنت دائما منقسما، وكنت أسأل رجال الثورة : لقد حققتم استقلال البلاد

فلماذا لم تمنحوا الشعب أيضا استقلاله؟ لماذا لم تشجعوا المشاركة السياسية من جانب الشعب الذى أنتم تنتمون إليه أكثر مما كان النظام الملكي القديم؟

وحين تتأمل ثورة يوليو تجد أن السمة الدكتاتورية لحكم الثورة كانت هي السبب وراء كل النكسات التى لحقت بنا ، ولو أننا استبدلنا الديموقراطية بالدكتاتورية لكانت هزيمة حرب ٦٧ مع إسرائيل لم تحدث ولوفرنا الملايين التى أنفقت باليمن بلا مبرر ، لأنه كان يمكن أن يكون هناك برلمان قوى ورأى معارض يبصر بالمخاطر .

لكن التاريخ لم يعرف ثورة قامت بالديمقراطية ، حتى ليبدو أن الطريقة الوحيدة لإحداث التغييرات العظيمة التى تأتى بها الثورات لا يمكن أن تتحقق إلا قسرا ، ولو تركت الأمور للمداولة البرلمانية لاستمرت الأمور على ما هى عليه ، أو لحدث قدر من الإصلاح لا يرتقى ليكون ثورة جذرية تنقل البلاد من عصر إلى عصر .

وأستفسر :

○ ألم تُطرح فى البرلمان المصرى قبل الثورة الكثير من الإجراءات الإصلاحية مثل قانون الإصلاح الزراعى ، وتحديد الملكية الزراعية ؟ لكنها لم تنفذ ، وكذلك الثورة الفرنسية التى أثرت فى العالم كله بحيث لم يعد العالم كما كان بعدها ، لم تقم بالديمقراطية ولم تحترم البرلمان ، والشىء نفسه فى بريطانيا بلد أعرق الديمقراطيات الأوربية ، حين قام فيها كرومويل بثورته ، اصطدم بالبرلمان وقام بحله .

فيقول نجيب محفوظ فى هدوء :

□ إننا نتحدث عن وضع استثنائى قام كرد فعل لأحوال متردية ، لكن ذلك لا ينبغى أن يتحول إلى سمة أساسية لنظام حكم يستمر ١٨ عاما .

إن الثورات تقوم كما تقوم لكنها فى النهاية بعد أن تحقق أهدافها

يجب أن تتحول إلى حكم المؤسسات . أما إذا استمرت وسائل القوة فى يد واحدة فقط فهذا قد يجهض أهداف الثورة ذاتها .

○ هناك من يقولون إنه فى ظل الأمية السائدة فى مصر ، والتى تصل نسبتها إلى ما يقرب من ٧٠ ٪ فإن الديمقراطية لا تصلح كنظام سياسى .

□ تلك هى حجة الدكتاتوريين ، فهم يقولون إن الشعب المصرى لم يحصل على شهادة الثانوية العامة بعد لكى يحصل على الديمقراطية ، وإنه ينبغى أولا الاهتمام بالتعليم والتقدم إلى أن تصل البلاد إلى مرحلة تستحق معها الديموقراطية ، لكن تلك مغالطة فالشعوب لا تصل إلى مرحلة التقدم الذى يتحدثون عنه إلا عن طريق الديموقراطية ، فى ظل حكم شعبى يهدف إلى تقدم الشعب والارتقاء به ، والدليل على ذلك أن جميع الشعوب التى حصلت على الديموفراطية حصلت عليها وبها أغلبية أمية والكثير منها تغلب على الأمية فى ظل الديموقراطية . إن الديموقراطية هى الحريصة على التعليم . أما الحكم الاستبدادى فليس من مصلحته نشر التعليم والتنوير ، وإزاء هذا الرأى الذى تطرحه علىّ أقول لك إنه إذا كان هناك هذه النسبة المرتفعة من الأمية فينبغى الإسراع بالديمقراطية فهى الباب إلى الثقافة والتعليم والأهلية .

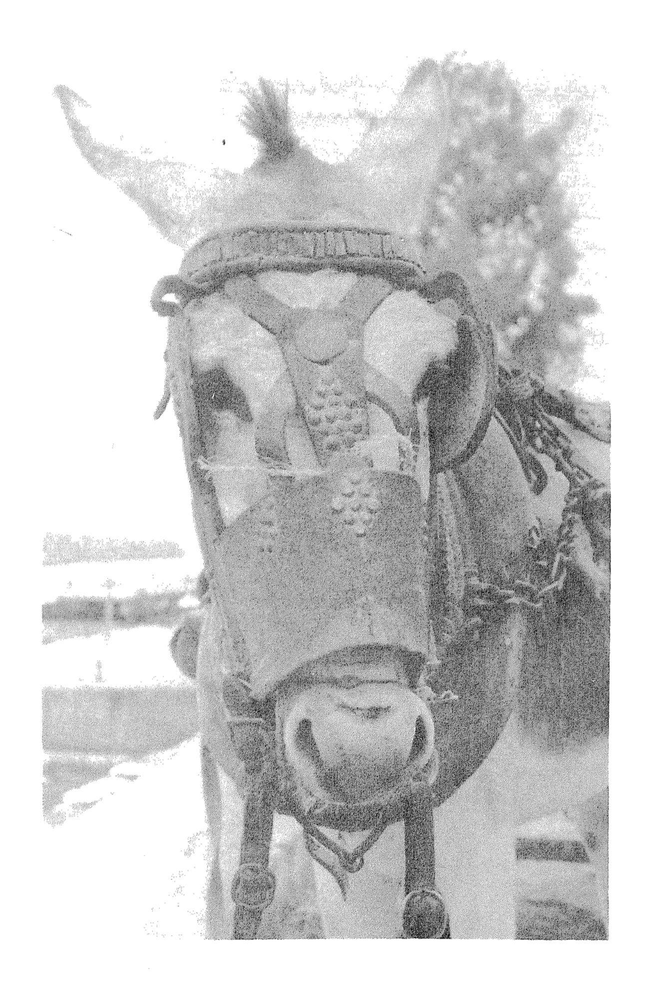
○ هل للحضارة المصرية دور فى هذا الموضوع ؟ أى ألا يجعل تاريخ مصر وتقدمها على مدى آلاف السنين شعبها أهلا للديمقراطية أكثر من شعوب نامية أخرى ما زالت حديثة العهد ، وليست بدرجة نضج الشعب المصرى ؟

□ هذاصحيح ، ولكن لماذا العودة إلى هذا التاريخ السحيق ؟ إن لمصر الحديثة تجربة ديمقراطية لا يفصل بينها وبين الديمقرقراطيات الكبرى فى العالم إلا سنوات معدودة . فالبرلمان الذى وجد فى عهد الخديو إسماعيل منذ أكثر من قرن كامل من الزمان كان برلمانا وليدا ، ولم يكن ينظر له بجدية إلا أن هذا البرلمان نفسه كان له دور فى خلع إسماعيل بعد ذلك ، ثم إنه أيد الثائر أحمد عرابى ضد

الحكم ، وعرابى أتى بالدستور وأحدث وحدة وطنية والذى هزم الديموقراطية بعد بعد ذلك لم يكن الأمية والتخلف ، وإنما كان الاستعمار الإنجليزى ، ثم بعد ذلك فى التجربة الديمقراطية التالية عام ١٩٢٤ أثبت الشعب المصرى أن لديه إحساسا مشرفا حقا ، فصديقى الكاتب الروائى ثروت أباظة يحكى لى - وهو مندهش - كيف أن الفلاحين الأميين فى قريته غزالة ، والذين كانوا يدينون دائما بالولاء لوالده الدسوقى أباظة باشا قد أسقطوه لأول مرة فى انتخابات ١٩٢٤ لأنهم كانوا يريدون حزب الوفد . ولقد شاهدت فى العباسية ما هو أغرب ، فقد كان هناك فى أحد إنتخابات الثلاثينات مرشح من الإخوان المسلمين وكان أمامه مرشح قبطى ، لكن أبناء الدائرة وكانت غالبيتهم العظمى من المسلمين أنجحوا المرشح القبطى لأنه كان من حزب الوفد ، وأسقطوا مرشح الإخوان الذى مني بهزيمة منكرة لدرجة أنه لم يستطع استرداد التأمين الذى دفعه لقلة الأصوات التى حصل عليها . فهل هذا شعب يقال إنه متخلف ويجب أن يتم تربيته أولاً قبل أن يحصل على الديموقراطية؟

إن الشعب المصرى قد يكون متخلفا تكنولوجيا ، أو صناعيا لكنه من الناحية الثقافية فهو أكثر تقدما من شعوب أخرى صنعت القنبلة النووية .







إســــــرائيــــــل والســــــلام

ربما لم يتعرض أحد للهجوم فيما يتعلق بموضوع إسرائيل مثلما تعرض نجيب محفوظ الذى كانت له ، ومازالت وجهة نظر ثابتة تدعو إلى السلام مع إسرائيل ، وتحاول إيجاد أسلوب آخر للتعامل معها غير الحرب .

ولقد سبق نجيب محفوظ فى موقفه هذا الرئيس السادات نفسه ، حين أعلن هذا الموقف فى المرحلة التالية لهزيمة ١٩٦٧ أى قبل زيارة السادات للقدس بحوالى عشر سنوات .

وقد كان من نتيجة ذلك أن مُنع نجيب محفوظ من الكتابة عام ١٩٧٣ ، وحجبت الأعمال الدرامية المقتبسة من رواياته فى تلفزيون الدولة ، وذلك بعد أن وقع عريضة مع عدد من كتاب ومثقفى مصر تعلن استياءها من حالة اللا سلم واللاحرب التى كانت سائدة ، وتطالب السادات بضرورة اتخاذ قرار فى هذا الصدد .

وبالطبع كان بعض الموقعين يرون الحل فى الحرب ، بينما كان البعض الآخر يراه فى السلم ، ومن بين هؤلاء كان محفوظ الذى كان من أوائل من طالبوا بالسلم فى العالم العربى .

وأسأل الاستاذ عما تعرض له من هجوم على مستوى الوطن العربى كله فيقول :

□ لقد كان هجوما مؤلما حقا لأنه كان يتعلق بشرفى الوطنى ذاته ، فحين أعبر عن رأى سياسى فإننى أتوقع أن يقول لى أحدهم أحسنت وأن يقول لى عشرة آخرون : أسأت ، أويقال لى : دعك من السياسة وابق فى أدبك ، كل هذا مقبول مني لكن حين أنادى بالسلام والتفاوض فيقال إننى عميل إسرائيلى (!!) فهذا فيه ظلم لا يرضاه أحد ولا حتى من ارتكبوه ، فلقد كان يجيئنى هؤلاء

ويقـولون لي نحن نعلم أنك لست ما نقـوله فيك لكننا نقـول ذلك حتى نردع الآخرين .

وأسأل :

○ **لماذا لم تلجأ للقضاء ؟ فيقول الأستاذ :**

□ إن مـعـالجـة تلك الأمـور لا يكون فـقط بالقـانون ، والإنسـان الواثق من نفسـه ومن مـوقـفـه يعـرف أنه لا يصح فى النهـاية إلا الصـحـيح ، فـهـا قـد اتجـه العـالـم العـربى كله إلى طريق السـلام والمفاوضة بمن فى ذلك من اتهـمونى بـالخيانة والعـمـالة ، أليس فى ذلك رد اعتبار تاريخى وقومى ؟ أقوى من أى حكم قضائى ؟

○ **كيف ترى إسـرائيل هل ستتمكن من الاندماج فى المنطقة وتصبح جزءا منهـا ، أم إنهـا ستظل دائـمـا منعـزلة عن بقـية دول المنطقـة كـالقـلاع الصليبية التى قامت منذ آلاف السنين ثم ما لبثت أن اندثرت ؟**

□ قـد نظل نتناقش فى هذا الموضوع فتقـول أنت رأيا وأقـول أنا رأيا آخر ، ونتشـاجر وقد نتضارب لكن تظل التجربة الفعلية بعيدة عني وعنك .

إن مـا سيـحـدد الرد على سؤالك ليس النقـاش ، وإنما التجـربة العـمليـة فهى وحـدها التي سـتظهـر حـقيقـة الأمر ، فـإذا تعـاملت إسرائيل بالحسنى كـان بهـا ، وحـتى إذا ظهـر أن كل مـا قيـل لنا عن حسن نيات إسـرائيل هو زيف وخداع فلن نكون قد خسـرنا الكثير ، ألسنا نحن الذين وقـفنا ضـد الصليـبـيين وطردناهم بلا رجـعـة من جميع الأراضى العـربية ؟ ألسنا نحن الذين وقفنا ضـد الاحتلال منذ مائة عـام ، وتحدينا أكبر الإمبراطوريات : بريطانيـا وفرنسا وإيطاليا وأسبـانيـا وحـصلنا على الاسـتـقـلال وحـافظنا على شـخـصـيـتنا وخـصـوصـيـتنا وعـقـائدنا فـهل بعـد ذلك نخشى أن نمحى بواسطة إسـرائيل؟ إن من يقـولـون بذلك هم عـبـدة إسـرائيل وإن كـانوا لا يعلمون .

ثم يرفع الأستاذ أصبعه فى وجهى بطريقته المعهودة قائلا :

□ لن تستطيع أن تصد نفسك عن الآداب والفنون الأجنبية فهي تتسرب إلينا عبر أجهزة الراديو والتلفزيون في حجرة النوم ذاتها .

○ وإذا لم نكن نستطيع صد أنفسنا عنها فكيف نتعامل معها ؟

□ بالثقة بالنفس ، يجب أن نربي أولادنا على الاستقلال الفكرى وعدم الانبهار بدون سبب ، فإذا كانت هناك فكرة فلنفكر فيها ، ونمتحنها وننظر إليها بعين نقدية وقد ينتهي بنا الأمر إلى رفضها أو تعديلها أو اتخاذها كما هي إذا كانت جميلة ، والمقياس الوحيد فى الفن هو أيهما أجمل ، وفي الفكر أيهما أصح ، فليس هناك أقبح من التقليد الأعمى .

ثم يضيف الأستاذ :

□ إن مصر ليست فقيرة في الثقافة ولا هي ضائعة حتى تخشى الثقافات الأخرى ، فمنذ سبعة آلاف سنة وهي تنتج الثقافة والفنون بأرقى ما يكون ، ولها شخصيتها ولها ثقافتها رغم الأزمة الطارئة التى تعيشها الآن ، فيجب ألا نخشى من أى فكر أجنبي . . بل أهلا به . . أتريدني أن أرفض الصحيح لا لشىء إلا لإنه جاء من خصم؟ إنني بذلك إنما أعادى نفسى .

فأقول :

○ لكن بعض من يتحدثون عن الغزو الثقافي ، إنما يقصدون الثقافة بمعناها الانثروبولوجى ، أى كل ما يتعلق بأسلوب الحياة من عادات وتقاليد وليس فقط بمعناها الرفيع الدال على الآداب والفنون ، وهم يرون أن الغزو الثقافي قد يهدر بعض تقاليدنا وعاداتنا .

□ أنا أعتقد أنه ليس هناك عادة لحضارة أجنبية تحل محل عادة من عاداتنا إلا لسبب أنها أفيد أو أجمل ، إن لنا عادات للموت في التعازى والمآتم وقد بدأت تتغير فلم يعد المأتم ثلاثة أيام وإنما يوم واحد ، وقد اقتصر البعض على تشييع الجنازة فقط والتعازى

بالتلغراف ، هذا التغير كان لاختلاف ظروف الحياة وتأثرا بطرق أجنبية في التعامل مع الموت فما الضرر في ذلك ، إن بعض العادات لا ميزة فيها إلا أنها عادة الآباء والأجداد لكن العادة الوافدة قد تكون أفيد أو أجمل .

ما أريد أن أقوله هو أنه في الثقافة على الإنسان أولا : أن يعتز بثقافته ، ثانيا : أنه في اختياره من الثقافات المختلفة لا يجب أن يكون معياره في الحكم أن تلك ثقافة أجنبية في مقابل ثقافة آبائي وأجدادى ، وإنما أى الثقافتين أجمل وأيهما أفيد وأيهما أجدى .

وأنا شخصيا لا مانع لدى أن تتغير بعض عاداتنا لأننا وجدنا أجمل منها في الغرب أو في الشرق ، وفي حضارتنا أشياء كثيرة جميلة لا يخشي عليها من التقليد الأجنبى أو من الغزو الثقافي .

○ وماذا عن تلك التى يخشى عليها ؟

أقول لها مع السلامة ، فهي إن هددها الغزو فذلك لأنها أضعف . فلماذا التمسك بها ، وتلك الثقافة الجديدة التى سأكتبها ستتفاعل مع تراثى ، وبعد جيل أواثنين ستصبح ثقافتى وبعد بضعة أجيال ستصبح هى الأخرى ثقافة الآباء والأجداد .

○ ألا يمكن أن يحدث أن تندثر ثقافة جميلة أمام غزوة القبيح ؟

□ قد تحدث هذه المأساة ، لكن الخطأ يكون عندئذ خطأنا ، ولا ذنب للغزو فيه ، فنحن الذين فرطنا في ما كان يجب الاحتفاظ به ، والتعامل مع هذا الغزو لا يكون بالانغلاق عنه لأنه سيتسرب سواء أردت أو لم ترد ، فإن لم يأتك هنا فستسافر له ومن الأفضل أن نعي ذلك ، لكن لا يجب أن نلقي تبعات تنازلنا عما هو جيد وجميل في حياتنا على ما نسميه الغزو الثقافي ، وألا نكون كمن يتهرب من مسئوليته ، فإن حماية كل ما هو صالح في تراثنا هي مسئوليتنا وحدنا وليست مسئولية الآخرين .

ثم يقول صراحة وبلا مواربة :

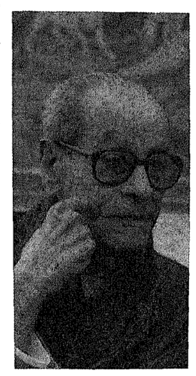
□ أنا من موقع قوتي التاريخية والثقافية مستعد للتعامل مع إسرائيل ، إن كان لها أدب فسأقرؤه وأقول هذا جيد وهذا ردىء ، لكن من يحذرون من ذلك قائلين إن إسرائيل إذا دخلت في التجارة فستغلبنا وإذا دخلت في الثقافة فستمحينا ، فإنهم قد مسح عقلهم ومحيت شجاعتهم الأدبية ، وزالت ثقتهم بأنفسهم ، وفقدوا استقلالهم أمام إسرائيل ، وهذا يعني أن روح الهزيمة أمام إسرائيل لم تبرح نفوسهم بعد .

إنني لن أنسي أحد المثقفين الوطنيين وهو يقول لي أنا أخشي لأننا لن نضاهيهم في التجارة ولا الصناعة وهم سيهزموننا ، كيف ذلك ؟

○ قد يكون ذلك مرجعه إلى أننا لسنا في أبهي عصورنا الثقافية في الوقت الحالي . .

فيقاطعني الأستاذ :

□ التأخر في مصر هو مرحلة عارضة وليس شيئا دائما ، وقد كان دائما هناك فترات انكسار طوال تاريخها ، ومع ذلك فلا أشك في أنك تتفق معي في أننا لسنا أكثر تخلفا مما كنا ونحن نحارب أكبر إمبراطورية عرفها التاريخ الحديث ، والتى لم تكن تغيب عنها الشمس ، لقد كان المستعمرون البريطانيون يقولون إن خروجهم من مصر هو حلم غير قابل للتحقيق ، وللأسف فإن بعض المصريين كانوا يقولون ذلك أيضا ، ومع ذلك خرجت بريطانيا وتحررت مصر من الاستعمار .



هذه هي مصر ، إننا أمة حضارة عاشت سبعة آلاف سنة ، وتعاملت مع جميع الأمم والملل بالخير والشر ، ومصر لا تخرج أفضل ما فيها إلا في مواجهة التحدي ، وهي لن تحقق كامل عظمتها إلا إذا عرفت كيف تتعامل مع التحديات التى تواجهها ، ووسيلتها في ذلك هي المواجهة وليس الهروب ، الشجاعة وليس الخوف ، الانفتاح وليس الانعزال .

وألحظ في حديث الأستاذ انفعالا نابعاً ليس عن حماس لإسرائيل ، وإنما عن إيمان قوى وراسخ بقدرة مصر وقوتها ، فأواصل حديثى عما أصبح يعرف بين المثقفين المصريين والعرب باسم الغزو الثقافي ، والذى دعا غالبيتنا يصرون على المقاطعة حفاظا على الثقافة العربية ، فيقول :

□ إن الصراع الثقافي غير الصراع العسكرى ، ففي الصراع العسكري هناك قتل وإبادة ، والمعركة قد تنتهي بسحق أحد الأطراف المتصارعة ، بينما الثقافة لا يمكن إلا أن تزيد من رقعة الجمال التى يمكن أن تستمتع به . إن تعبير الغزو الثقافي يعني شيئا مختلفا تماما عن الغزو العسكرى ، فإذا اطلعت على ثقافة أجنبية لدولة صديقة أو عدوة فسأستفيد منها ، وستكون سببا من أسباب تفوقي في المستقبل .

○ **هل تعرف الأدب الإسرائيلي ؟**

قليلا ، فما ترجم منه إلى العربية ضئيل جدا ، ولقد قرأت أخيرا بعض الروايات القصيرة لعجلون الفائز بنوبل وهي أدب جيد يجرى في مجرى واحد مع أدبنا رغم أن أسلوبه غربي ، لكني لم أجد فيه تفوقا لافتا للنظر ، بل إن لدينا أدبا أجود منه ، ولكن حتى على فرض أن الأدب الإسرائيلى متفوق على أدبنا فماذا نخشى ؟

لقد قرأنا في زمن من الأزمنة الأدب الفرنسي ، وكان متفوقا على أدبنا في ذلك الوقت ، وقرأنا الأدبين الإنجليزى والألماني فماذا حدث ؟ حدث أننا هضمناه وحاولنا أن ننتج مثله ونجح بعضنا في هذا ، إذن فقد كانت الآداب الأخرى حافزا لتفوق الأدب العربي وليست ماحية له .



المـــــــرأة والجـــــــريمـــــــة والأدب

وأسأل الأستاذ :

○ من هي المرأة التى أثرت في حياتك؟

فيقول :

الأم كان لها دور كبير في حياتي ، وكذلك الزوجة ، والحب بمعناه الأفلاطوني كان له أثر كبير على في سن المراهقة ، ثم أتي بعد ذلك الحب الناضج ، أما تقلبي في القاهرة من قمتها إلى أسفلها ومن أسفلها إلى قمتها فقد جعلني أعرف وأخابر النساء من جميع الأشكال والألوان .

وأنا صغير عرفت العوالم ، وكانت هناك صالات الملاهي مثل صالة بديعة وغيرها ، حيث عرفنا الراقصات والمغنيات ومشينا في شارع النساء من أوله إلى آخره بخيره وشره .

○ ماذا كان دور الأم في حياتك ؟

□ دورها كان كبيراً . والأم في عصرنا بصفة خاصة كانت سيدة بيت ، ولم تكن موظفة . وكان الزوج يعمل خارج البيت لذلك كانت صلة الأم بالأبناء قوية جداً ، والأب عادة ما كان على الهامش خاصة فى السنوات الأولى ولا يظهر إلا وقت الأزمات ، أما الأم فهى كل شىء ، وفد استفدت من أمى حنانا ما زلت أذكره، وأشعر بدفئه وقد تخطيت الثمانين .

كذلك من الناحية المعرفية لعبت أمى فى حياتى دورا كبيرا جدا لأنها ـ لا أدرى الأسباب ـ كانت إلى جانب ز يارة الأضرحة والأولياء كانت مولعة بزيارة الآثار القديمة التى كانت تهتم بها اهتماما كبيرا رغم أنها كانت سيدة كبيرة وأمية ومن الجيل القديم ،

وأستطيع أن أؤكد لك أننى زرت معها دار الآثار المصرية «الإنتخانة» عشرات المرات والهرم وأبا الهول ، وكانت تقف أمامها فى انبهار وكأنها فى حالة تعبد ، كذلك زرت معها جميع الآثار القبطية ومنها : كنيسة ما رجرجس التى ما زلت أذكر زياراتى المتكررة لها ، فقد كانت أمى جوالة ، ولست أعرف كيف نمت عندها هذه الغية ، ولقد كانت تعرف شهرة هذه الأماكن فتختارها بالتحديد ، وكنت أصحبها فى هذه الجولات منذ الرابعة أو الخامسة .

○ هل كونك آخر الأبناء قرب بينك وبين والدتك ؟

فعلا فحين تفتحت مداركى وجدت أن أشقائى جميعا رجالا ونساء تزوجوا ، ولم يكن فى البيت غيرى مع أمى وهذا فرض عليّ إلى جانب ذلك أن أتعلم كيف أعيش وحدى حين كانت تنشغل والدتى عنى .

كان هذا هو فضل والدتى علي ، ثم يأتى بعد ذلك فضل الزوجة وقد كان انشغالى بالقراءة والكتابة يأخذ كل وقتى لكنها تفهمت الوضع ، ولولا ذلك لانفجرت هذه الحياة بطريقة أو بأخرى . فى بعض الأحيان يمكن أن يكون هناك أخذ على الخاطر لكن بشكل عام فإن زوجتى تفهمت طبيعة حياتى ككاتب وقبلت هذا .

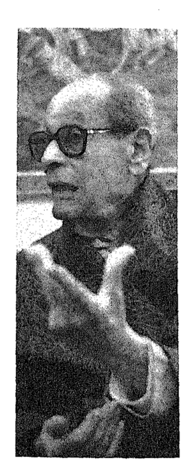
○ وما هى طبيعة علاقتك بابنتيك أم كلثوم وفاطمة ؟

لقد ربيتهما على قدر كبير من الاستقلالية ، رغم أننى تربيت فيما يشبه العصر العثمانى ، فهما متعلمتان وتعملان ، وكل منهما حرة فى أن تكون نفسها ، لكن رغم هذه الاستقلالية التى تعودتا عليها فهما متدينتان جدا ، تصليان وتصومان وقد حجتا إلى بيت الله الحرام ، وهما لا تنبهران كثيرا ببريق الحياة الزائف ، وحين يطلب مني مثلا أن تجرى معي أحاديث عائلية ، فهما ترفضان المشاركة فيها قائلتين إن هذا عملى فما لهما به؟ وما صفتهما حتى تظهرا فى الصحف أو التلفزيون ؟ أما عن نفسى فأنا ليبرالى إلى

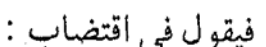
أقصى درجة معهما ، وقد كنت أعرض عليهما فإذا قبلتا العرض قبل ، وإذا رفضتا لم أكن أضغط أبدا فى أى اتجاه فيجب على كل إنسان أن يتخذ خياراته بنفسه .

○ إذا انتقلنا إلى أعمالك الأدبية نجد أن تنوع نماذج المرأة التى ظهرت فى رواياتك يشكل موسوعة كاملة للشخصيات النسائية من المرأة المغلوبة على أمرها إلى العاهرة، ومن المرأة الأمية الى المثقفة ، والغريب هو أنك صورتهن جميعا بنفس درجة المعرفة والإتقان ، بل وبنفس درجة التعاطف أيضا .

□ أنا متعاطف مع جميع أنواع البشر ، بل فى بعض الأحيان حين يكون هناك نموذج كريه فإنى أحاول تجنبه لأنى لا أستطيع أن أتمثله ، لذلك تبقى مثل هذه الشخصيات على الهامش ، حتى بطل القاهرة الجديدة تجدنى قد حدثتك عن دوافعه وظروفه السيئة التى دفعته لأن يصبح هذه الشخصية النفعية المتسلقة ، وكأنه ليس اتهاما وإنما دفاع غير مقصود ، وأنا لا أذكر أننى قد كرهت أى شخصية أساسية من شخصيات رواياتى ، وهناك من الشخصيات من أدينها لكنى أحبها ، وبدون هذا الحب لم يكن من الممكن أن أفهمها وأن أكتب عنها .



○ نلاحظ مثلاً فى تصويرك لنموذج المرأة الساقطة أنه ليس موقف دفاع فلسفى مثل موقف سارتر على سبيل المثال فى مسرحيته الشهيرة «المومس الفاضلة» وإنما هو أقرب لموقف تولوز لوتريك الفنان الذى صور راقصات الكباريهات فى لوحاته بقدر كبير جدا من الفهم والتعاطف ، والمثال على ذلك هو شخصية نفيسة مثلا فى بداية ونهاية حيث نجد توضيحاً كاملاً للظروف التى دفعت بها دفعا إلى طريق الانحراف ، وكأن بالرواية محاولة واضحة لتبرير موقف نفيسة المغلوبة على أمرها والإدانة هنا كلها تقريبا فى جانب الشخصيات الأخرى التى دفعتها إلى هذا الطريق وفى مقدمتهم شقيقها الضابط .



فيقول فى اقتضاب :

□ إن بداية ونهاية هى فى الواقع إدانة لمجتمع ما ، ولم يكن من الممكن ، ولا السليم أن أوزع هذه الإدانة بين المجتمع وضحاياه .

○ وماذا عن الجريمة فى أدب نجيب محفوظ ، إن استخدام الجريمة متكرر فى رواياتك فما هى دلالات ذلك ؟

□ الجريمة عندى هى الجريمة الاجتماعية ، فأنا تجذبنى الجريمة التى تظهر فيها بصمات المجتمع وأحواله السيئة بحيث لو كان المجتمع أفضل لما وجدت هذه الجريمة ، فمثلا فى اللص والكلاب لو لم تكن تلك الظروف السيئة التى كانت تستحق الإدانة لما أطلق البطل النار ولما سرق أو ارتكب الجريمة .

○ هل كنت تستلهم شيئاً من صفحات الجرائم بالصحف ؟

□ لا ، فإن الجرائم التى أعنى بها فى معظم الأحيان جرائم خاصة أو يمكن أن نسميها جرائم فلسفية مثل من يبحث عن الخير ، لكنه يضيع أوينحرف ، والمثال على ذلك رواية الطريق التى كان يبحث فيها البطل عن الحقيقة المطلقة لكن قدمه زلت فى الشر ، فبدلا من أن يصل إلى ما كان يصبو إليه وصل إلى حبل المشنقة .

○ هل هناك من أحداث الحياة ما ألهمك بعض أعمالك ؟

□ إن كل ما يكتبه الأديب هو إلهام من الحياة ، فيمكن لشخص أو موقف أن يحرك الأديب إلى الكتابة ، وحتى حين تكون الرواية هى نتاج لتأمله أوفكره وليست من الأحداث اليومية للحياة فإن هذا الفكر هو فى الحقيقة نتاج لتفاعل الأديب مع الواقع الذى يعيشه .

ربطة العنق والفول والطعمية

من أهم الخصائص الشخصية لنجيب محفوظ البساطة والتواضع ، وقد كنت فى مكتبه بجريدة الأهرام فى أحد الأيام ، وكان قد مضى على إعلان فوزه بجائزة نوبل حوالى شهر لم ينقطع خلاله سيل الصحفيين ورجال الإعلام عن التوافد إلى مكتبه لإجراء الأحاديث وعقد اللقاءات ، فأراد أن يستريح قليلا فأخبر سكرتيرته بألا تحدد أية مواعيد لأنه سيذهب إلى الإسكندرية لقضاء يومين للاستجمام . وسألته السكرتيرة كيف سيسافر؟ هل يريد أن تعد له سيارة خاصة ؟ حيث إن نجيب محفوظ لا يملك سيارة خاصة فاندهش لسؤالها وقال : بلى سأسافر كما أسافر دائما بالأتوبيس العام فقالت السكرتيرة ولكن الآن بعد نوبل . . فقاطعها : وماذا بعد نوبل ؟ أنا كما أنا لم يتغير شيء فى حياتى .

فتدخلت فى الحديث قائلا إن السكرتيرة لا تقصد أن حياته يجب أن تتغير بسبب نوبل ، ولكن فوزه بالجائزة يعتبر حدثا وطنيا كبيرا دفع جميع أبناء البلاد للتهافت على نجيب محفوظ ومصافحته والتحدث إليه كلما رأوه فى أى مكان عام ، لذلك فهو لن ينعم بأية راحة لو أنه سافر فى الأتوبيس العام .

فرد محفوظ بابتسامة هادئة : ربما كان من حق أبناء البلد علىّ أن يصافحونى فإن إقبالهم على قراءة كتاباتى هو الذى منحنى فى النهاية هذه الجائزة . . وأسوأ ما يمكن أن يحدث لى هو أن تعزلنى نوبل عن الناس .

وتظهر البساطة وعدم التكلف فى المظهر العام لأديبنا الكبير فهو لا يلبس ربطة عنق أبداً ، وهو دائم أهداء ربطات العنق التى تجيئه إلى أصدقائه بمناسبة وبدون مناسبة ، وأذكر أنه فى مرة أثناء زيارة عادية فى بيته أنه قدم لى ربطة عنق أنيقة ، وحين سألته عن المناسبة قال :

المناسبة أنني لا أعرف ماذا أفعل بكل ما يجئني من ربطات العنق هذه !

ومع ذلك فقد وجدت بين صور نجيب محفوظ القديمة جدا صورة له وهو يرتدى ليس فقط ربطة عنق وإنما « بابيون» وكلما أردت أن أسأله عن تلك الصورة الغامضة يغيب الموضوع عن بالي .

يقول الأستاذ :

□ ظللت ألبس ربطة العنق لسنوات طويلة ، لكني كنت أصبت منذ زمن بحساسية جلدية فأصبحت أية ربطة على عنقي تضايقني ، ولم أكن في البداية أستطيع أن أجاهر بعدم ارتداء ربطة العنق فكنت أدارى ذلك بأن ألبس « بلوفر » يخفي العنق لكني بعد ذلك أقلعت عن ذلك أيضا ، والآن لا أستطيع أن أعود إلى ربطة العنق ثانية لأني لا أعرف كيف تربط .

○ أليس بدولاب ملابسك ربطة عنق واحدة ؟

□ ولا واحدة ، وقد كان بعض الأصدقاء مثل يوسف السباعي كلما سافروا إلى الخارج أحضروا لي معهم أربطة عنق فاخرة فكنت آخذ الهدية وأستأذنهم في أنني سأقوم بإهدائها .

○ لكنك لم تعد تلبسها حتى فى أكثر المناسبات رسمية ، وأذكر حين أقام الرئيس حسنى مبارك حفلا على شرفكم بمناسبة حصولك على جائزة نوبل ودعي للحفل الذى أقيم برئاسة الجمهورية كبار أدباء العالم أنك حضرت إلى الحفل بدون ربطة عنق .

□ لكني كنت أرتدى قميصا أسود مقفولا وفي هذا أقسي ما استطعته من رسمية ، فالزمن ليس كالزمن ورئاسة الجمهورية ليست كالقصر الملكي ، ورئيس الجمهورية رجل بسيط يسير في بعض الأحيان بالقميص والبنطلون ولا يلتفت كثيرا لهذه الأمور .

○ وماذا عن رداء الرأس لقد شاهدت لك صورا كثيرة بالطربوش فمتي أقلعت عنه؟

□ أقلعت عنه بشكل نهائى بعد الثورة ، وكنت سعيدا جدا بذلك ، فقبل عام ١٩٥٢ لم يكن من الممكن أن أدخل على مدير بالوزارة بدون طربوش إلى أن أصبح المدير نفسه يأتى بعد ذلك بلا طربوش .

○ **لكنك كنت تلبس القبعة . .**

□ القبعة كنت ألبسها في الصيف فقط لنفس حساسية الجلد التى حدثتك عنها ، فقد قام صديقي الأديب مصطفي أبو النصر بإهدائي قبعة وجدت أن بها فائدة ، وكانت عندى قبعة أخرى لا أعرف من أين جاءتنى ولا أين ذهبت الآن هي وزميلتها ، فليس بدولابى الآن قبعات .

ثم يسرح الأستاذ بعيدا ليقول :

□ للقبعة تاريخ آخر في حياتنا . . حين كنا في مرحلة التعليم الثانوى وفي الجامعة ظهرت دعوة لارتداء القبعة كنوع من الفرنجة والاندماج في الحضارة الغربية على أساس أن الطربوش هو رمز التأخر وأن القبعة هي رمز التقدم ، وهناك من قادوا هذه الحملة مثل المرحوم محمود عزمي ، وقد ظهرت في ذلك الوقت منولوجات تتغني بذلك فتقول « ما بدها ظيطة . . ما بدها عيطة لبسنا البرنيطة ! » .

لكن تلك الدعوة لم تستهوني لأنه في عز حماسي للحضارة الغربية لم يقل عندى شأن الحضارة الأصلية العربية الإسلامية ، فكنت ترى على مكتبتي مؤلفات شكسبير والمتنبي مثلا في نفس الوقت .

○ **كم بدلة في دولاب نجيب محفوظ ؟**

ويفاجأ الأستاذ بالسؤال فيقول :

□ ماذا ؟

فأكرر عليه السؤال فيصمت لحظات لست أعرف متذكرا أم مستنكرا ثم يقول :

□ بالنسبة للبدل الشتوية لا تزيد عن عشرة ، وهذا كثير ، ففي بعض الأحيان قد يمضي الشتاء كله فأجد أنني لم أرتد أحداها إلا مرة واحدة ، ولقد مضت سنوات لم أفصل فيها أية بدل جديدة .

○ من كان ترزيك المفضل ؟

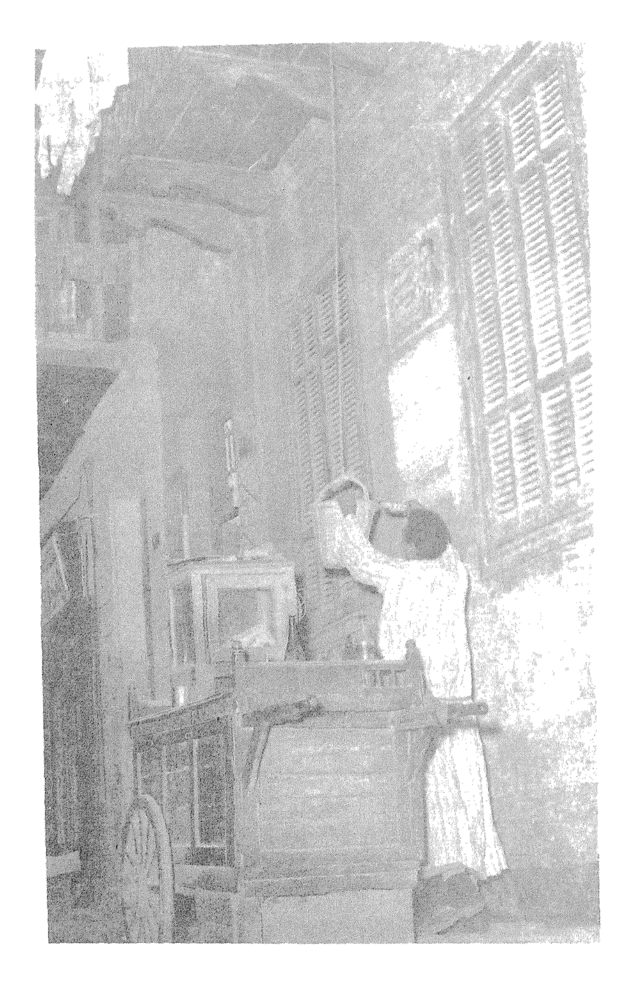
□ ترزى كان مشهورا بين أبناء جيلي أخذني إليه صديقي ثروت أباظة الذى جاءنى مرة مستنكرا وقال : إنك لم يعد بينك وبين دليا إلا عشرة جنيهات فقط ، فقلت له ومن هو دليا هذا ، قال لي إنه أكبر ترزى في مصر ، وأجره لا يزيد عما تدفعه أنت الآن إلا عشرة جنيهات ، فلماذا لا تأتي معي إليه ليفصل لك بدلة محترمة ؟ إنه ترزى الأكابر ولا يفصل لك من هب ودب وسأكون أنا واسطتك عنده .

ولقد صار دليا بعد ذلك صديقا عزيزا ، ومنذ بضعة سنوات كان يجرى عملية جراحية وذهبت لزيارته ودعوت له فوضع رأسه على كتفي وبكى ، ولم أره بعد ذلك فقد توفي وامتنعت أنا عن تفصيل البدل .

وسألت الأستاذ عن أكلاته المفضلة وفي تلك اللحظة دخلت السيدة عطية الله حرم الأستاذ فسمعت سؤالى وبدت على وجهها علامات الاندهاش فقال الأستاذ ضاحكا :

□ معذورة ، لقد تعودت حديثنا عن الأدب والسياسة ثم دخلت الآن لتجدنا قد وصلنا إلى المطبخ ، ثم أضاف :

□ أقول لك بداية إن الفول المدمس والطعمية لهما عندى منزلة الرواية في مجال الأدب فهما طبقي المفضل ، وحين أجريت عملية القلب في لندن عام ١٩٩١ فقدت شهيتي تماما للأكل ، فلقد كانت المائدة تأتي لي كل يوم مليئة بكل ما لذ وطاب وكانت تشبه في توضيبها اللوحة التشكيلية ، لكنني لم أكن أمسها ، وفي النهاية سألني مستر جرين الذى أجرى لي العملية وهو جراح عظيم : ماذا تريد أن تأكل ؟ فقلت له إنني لا أجد في نفسي الآن شهية إلا للفول



أو شربة العدس ، وكنت أتصور أنني بذلك أطلب المحال ، لكنهم قالوا لي إن ذلك موجود ولكن عند على بابا وهو محل للمأكولات الشرقية في قلب لندن ، وقد كان على بابا يأتي لي بعد ذلك كل يوم بشرية العدس والفول المدمس بزيت الزيتون والطعمية .

بعد ذلك أحب الملوخية التى كنت آكلها «كفتة» ، لكن بعد إصابتي بالسكر لم يعد بإمكاني أن آكل خبزا كثيرا ، فأصبحت آكل الملوخية بالملعقة وكأنها شربة ، لكن فتة الملوخية هذه لا يعلي عليها !

وكانت السيدة عطية الله قد أخبرتني أن طبق السلطة من أهم الأطباق على مائدة الأستاذ فسألته :

○ كيف تأكل السلطة ؟

فقال على الفور :

□ السلطة البلدى وحتى حين أذهب إلى الإسكندرية ، وأضطر للنزول في فندق مثلا فأنا دائما أنبههم إلى أنني أحب أن تأتي السلطة على الطريقة البلدية وأن يكون الخبز أيضا خبزا بلديا ساخنا .

ثم يتساءل : ولكن أين العيش البلدى الحقيقي الذى كنا نأكله زمان ؟ إن الخبز البلدى زمان وهو طالع من الفرن كان بإمكانك أن تأكل رغيفا كاملا « حاف » عن تلذذ وليس عن فقر . . شيء غريب !

كنت أيضا أحب الحلويات ، لكن ذلك أيضا كان قبل الإصابة بالسكر فأنا مريض مؤدب جدا ومطيع ، حتى إني لا آكل حلويات إلا ما صنع خصيصا لمرضي السكر .

ويلح على السؤال :

○ ألا يوجد أى شيء مصرى لا تحبه سواء في الأكل أو الموسيقى أو خلافه ولا يوجد أى شيء غير مصرى تحبه ؟

□ فيقول : الشيء غير المصرى أحبه أيضا ولكن من بعيد ، فأنا أحب أن أجلس في قهوة الفيشاوي بالحسين ، لكن إذا قلت فلنذهب إلى فندق سميراميس فسأذهب معك وسأستمتع بالجلسة هناك ، لكني أعلم طوال الوقت أنني عائد من جديد إلى الفيشاوي.





طعنات الموت !

يروى نجيب محفوظ في قصة له بعنوان « الحزن له أجنحة » عن رجل حاصره الموت من كل جانب ، حيث توفيت زوجته فحزن عليها حزنا كبيرا ، ثم ماتت زوجته الثانية والتى تزوجها بعد ذلك ، وما هي إلا سنوات قليلة وماتت ابنته ثم تبعها ابنه الذى ذهب إلى الحرب .

ويتوقع الراوى أن تحدث للرجل أمور أو ردود فعل تعيسة بعد أن أخذ منه الموت كل المحيطين به من أفراد أسرته وتركه وحيدا ، لكن شيئا من ذلك لم يحدث حتى قال له الرجل يوماً :

لقد تضاربت الأحزان فهلكت جميعا ، صدقنى لم أعد أشعر بالخوف لا على زوجتّى ولا الابن ولا الابنة ، لا أدرى كيف حل هذا السلام كله . . أنا الأن مثل طير لا تربطه علاقة بالأرض ويخيل إلى أننى لم أعرف السعادة من قبل كما أعرفها الآن .

لكن بالبحث عن الحزن فى حياة نجيب محفوظ نجده كثيراً فقد عرف الموت فى أكثر من مرة فى أحياء له مضوا بلا رجعة مثل والديه وزعيمه السياسى والعديد من أصدقائه المقربين ، لكن أحزانه لم تتضارب ولم تهلك بعضها بعضا كما حدث لبطل قصته ، فكل موت عرفه محفوظ أثر فيه تأثيرا كبيرا ، وهو يتكلم عنه بألم واضح .

○ متى كانت أول مرة عرفت فيها الموت ؟

□ كان لى قريب يلعب معى فى بيتنا بحى الجمالية القديم ، وكان سني فى ذلك الوقت ست أو سبع سنوات على الأكثر ، أما هو فكان أصغر قليلا ، وفى يوم من الأيام اختفى ، ولم يعد يأتى للعب وظللت أسأل : أين هو ؟ أين ذهب ؟ ولست أذكر بالضبط كيف أفهمونى أنه لن يأتى ثانية ، لكنى أذكر حديثا بينى وبين والدتى

كنت أحتج فيه على ما كانت تحاول أن تفهمه لى عن موت قريبى هذا ، فكانت تقول لى : إن ذلك هو أمر الله وإننا جميعا سنموت . لكنى لم أفهم ذلك وسألتها : وهل ستموتين أنت أيضا؟فقالت : بالطبع ! فأجهشت بالبكاء فلم أكن قادراً فى سنى هذا على تقبل هذه الحقيقة وأعتقد أن تلك كانت أول مواجهة لى مع الموت كإحدى حقائق الحياة .

أذكر بعد ذلك زياراتى للمقابر مع والدتى وبعض أفراد العائلة ، وكيف كانوا يقولون لى إن فلانا مدفون هنا وفلانا هناك ، وهكذا بدأت هذه الأشياء رويدا رويدا ترسخ لدى فكرة الموت بمعناها المادى البسيط ، ووجدت فى وقت من الأوقات أنه من الإيمان أن أعتقد بأن الموت حق علينا وكنت أعرف أننا سنموت . . أنا ووالدتى ووالدى وإخوتى ولكن فيما بعد ، فإذا كنت قد وصلت إلى قبول الموت كحقيقة إلا أن قبولى له كان مرتبطا بأنه حقيقة مؤجلة .

ثم جاءت الطعنة التالية فى سن الخامسة والعشرين حين توفى والدى بعد أن كنت قد نسيت لسنوات طويلة حقيقة الموت التى عرفتها فى طفولتى المبكرة .

وكانت تلك تجربة أليمة للغاية لأنها كانت تجربة بكرا ، فقد كان والدى أول أفراد أسرتى فى ملاقاة الموت ، ولقد حزنت عليه حزنا شديدا جدا ثم توالت بعد ذلك طعنات الموت الواحدة تلو الأخرى حتى اعتدت ذلك .

○ **كيف كان رحيل والدتك التى كانت لها منزلة خاصة فى نفسك ؟**

□ من حسن حظى أننى تمتعت بحنان الأم إلى النهاية ، فقد كانت والدتى سيدة معمرة ولم ترحل عن هذا العالم إلا بعد أن وصل بى العمر إلى ما بعد الخمسين ، وهكذا تمتعت بكل فترات العمر التى تحتاج رعاية الأم وحنانها ، وأتصور أن يتيم الأم فى صغره قد فقد ثروة لاتقدر ، ولا تصدق من يقول بأن فلانة كانت له

بمثـابة الأم ، فـهـذا كـلام مجـازى لأن منـزلة الأم لا يشغلهـا إلا الأم .

لكن الغـريب فى الموضـوع أنه رغم شـدة حزنى على والدتى إلا أن الصدمة لم تكن قوية مثل صدمتى فى وفاة والدى وأنا ما زلت فى سنوات التكوين، ولو حـدث أن رحلت والدتى فى هذه السن المبكرة لربما كنت قد تحطمت .

○ أفـهم جيدا ما تقول فقد توفى والدى أنا أيضـا قبل والدتى بعشرين عـامـا ، توفيت والدتى وكان عـمرى يقترب من الخمسين ، لكنى أجد الحزن مـا زال ثقيـلا . . يقولون إن الإنسـان لا يبلغ سن الرشـد إلا بموت أمه . .

□ هذا صحيح ، فالإنسان طوال فترة حياة أمه يعتمد عليها عاطفيا ووجدانيا أكثر مما يتصور ، لذلك فبرحيلها هو يفقد سندا عظيما فى الحياة ، وعندها يدرك الإنسان أنه قد أصبح الآن وحيدا فى هذا العالم وعليه أن يعتمد على نفسه فقط ، قد يكون للإنسان أصدقاء وأحباء وأبناء وأحفاد . لكن يعلم أن مكان الأم قد أصبح شاغرا إلى الأبد .

ثم يضيف بابتسامة رقيقة لا تخلو من بعض الأسى :

□ لكن يهيأ لى أنه فى الحياة العصرية فإن مثل تلك المقولات قد أصبحت حكما قديمة . . لقد تغيرت الدنيا وتغيرت معها العلاقات الأسرية .

○ أعرف أنك تأثرت جدا لرحيل الزعيم الكبير سعد زغلول . .

فيقول على الفور :

□ لقد كان سعد باشا أبا الأمة بشيبته المهيبة ، ووفاته كانت وفاة الأب على مستوى البلد كلها ، وحتى أعداؤه كثروت باشا وعدلى باشا كانوا قد انضموا له فى النهاية لذلك فلم يكن هناك من لم يحزن على وفاة سعد زغلول ، ولقد تأثرت له أبلغ تأثر ، فقد كان

عمرى فى ذلك الوقت ١٥ عاما ليس أكثر ولم أكن قد فقدت والدى بعد ، وأذكر أننى صحوت فى صباح يوم ٢٤ أغسطس عام ١٩٢٧ ، وما إن رفعت ناموسية سريرى حتى وجدت ابن شقيقى وهو فى مثل سنى يدخل على الغرفة قائلا لى : سعد باشا مات !

وكدت أقفز من السرير وأقبض بيدى على عنقه ، وسألته : ماذا تقول ؟ وخرجت على الفور إلى الصالة فسمعت نهنهة ، وإذا بى أمام والدى ووالدتى يبكيان ، ولم أكن قد رأيت والدى يبكى قبل ، لكنى حين خرجت إلى الشارع وجدت أن البلد كلها كانت تبكى .

○ **هل قابلته خلال حياته ؟**

□ لم أره قط . . كانت هناك فرصة وحيدة لرؤيته لكنها لم تتحقق فحين اختلف مع الملك وقامت التظاهرات أمام سراى عابدين تهتف سعد أو الثورة ! كان سعد سيجىء لمقابلة الملك فقلت لنفسى : اليوم سأراه ! . . لكن ما إن وصل إلى ساحة عابدين حتى أحاطت به الآلاف من كل اتجاه حتى إن سيارته تحولت إلى كتلة بشرية تتقدم بصعوبة فى اتجاه القصر ، حاولت جاهدا أن أجيء يمينا أو يسارا علنى ألمحه لكنى لم أستطع حتى أن أرى سيارته

وتدمع عينا نجيب محفوظ وتحتبس الكلمات فى الحلق ، فيحل الصمت لحظات متصلة لا أستطيع خلالها مواصلة الحوار احتراما للحظة ، وتقديرا لمشاعر الرجل التى فاضت أمامى فى تلقائية نبيلة فأقمع السؤال بداخلى فلا يطل برأسه إلا بعد أن يستعيد الأستاذ هدوءه .

○ **علام حزنك يا أستاذ ؟**

□ ليس حزنا . . الحزن قد فات وقته وانقضى ، إنه شريط الذكريات التى أحياها حوارك اللعين . ثم يضيف : لقد كان سعد زغلول هو المدرسة التى تخرجنا فيها جميعا ، المدرسة التى تعلمنا فيها كيف نحب مصر من يوم أن وجدت ، أن نحبها بقدر عمرها .

ويصمت الأستاذ من جديد ولا أرضى عن نفسى ، وأنا أقطع الصمت بسرعة كى أواصل الحوار :

○ وماذا عما يقال عن أن سعدا بعد توليه الوزارة تراجع قليلا عن مواقفه السابقة وصار يتعاون مع الإنجليز ؟

فيقول محفوظ فى هدوء لكن بإصرار والدمع مازال فى عينيه :

□ لم يتراجع أبدا ، والوزارة التى تولاها فعلت ما لم تفعله قبلها وزارت مصر مجتمعة من حيث الإصلاح والمواقف الوطنية ، أما عن علاقته بالإنجليز فبعد مقتل السردار فإن الإنجليز استخدموا القوة وطردونا من السودان ، فماذا كان باستطاعة سعد أن يفعل ؟ وحين وجه إليه أعضاء الحزب الوطنى المعارض مثل هذه الانتقادات قال لهم : اعطونى تجريدة (أي جيش) وأنا أرد على الإنجليز . .

وتتوالى الذكريات فيقول الأستاذ

□ وحين ذهب اللنبى يعطى لسعد إنذاره الشهير دخل عليه مجلس الوزراء بالجيش والخيالة وبدون سلام أخرج الإنذار وقرأه ، فقال له سعد بابتسامة : لم أكن أعلم أنكم أعلنتم الحرب !

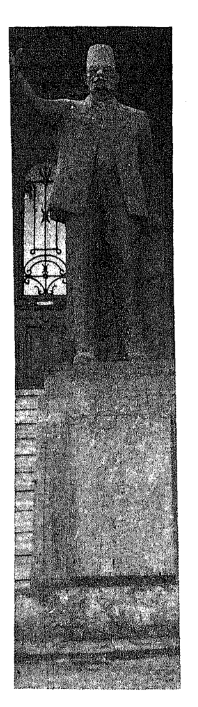
○ كم حزنت على وفاته ؟

□ حزنا لم أحزنه على أحد . . ربما كان أكبر حزن فى حياتى .

○ إذا كانت تلك ذكريات رحيل سعد زغلول فى طفولتك ، فلقد رحل جمال عبد الناصر ، وأنور السادات وأنت تقترب من الكهولة فماذا كانت ذكريا تك عن يوم وفاة كل منهما ؟

□ لقد كان موت كل من عبد الناصر والسادات مختلفا تماما خاصة عبد الناصر الذى كان رجلا فتيا قويا ، لقد كان الموت برحيله يسدد لى طعنة جديدة ليذكرنى بأنه قريب منى ومن جيلى .

ولقد كانت جنازة عبد الناصر من أكبر الجنازات التئ شهدها التاريخ الإنسانى خيث خرجت الملايين تودعه ، أما جنازة سعد



فلم يمش فيها بعض الوفديين أنفسهم فقد كانت فى موسم الإجازات والكثير من زعماء الحزب من الباشوات والبكوات كانوا يمضون الصيف فى أوروبا .

○ هل شاركت أنت فى جنازة سعد زغلول؟

□ بالطبع من ميدان الأوبرا إلى مدافن الإمام الشافعى ، وكانت النوافذ طوال الطريق مليئة بالمودعين الذين كانوا يبكون ويصرخون .

فى وفاة سعد زغلول كان الحزن على رحيل حبيب غال ، أما رحيل عبد الناصر فكان مقترنا بالضياع ، فعند وفاة سعد كانَ هناك خلفاؤه ، ولكن عند رحيل عبد الناصر لم نكن نعرف له خليفة .

○ كيف تتذكر يوم رحيل عبد الناصر ؟

□ هو يوم لن أنساه أبدا يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ ، لقد كنت دائما آخذ إجازتى فى سبتمبر ، وفى هذا اليوم عدت من الإسكندرية فى المساء أنا وزوجتى وابنتانا ، ولم يكن هناك بالطبع اى استعداد للعشاء بالمنزل الذى كان مغلقا منذ شهر كامل ، فقالت زوجتى إنها سترسل الشغال ليحضر لنا عشاء جاهزا من أحد المطاعم القريبة فجلسنا أنا والبنتان أمام التلفزيون نتسلى إلى أن يأتى الطعام ، فلاحظنا أن التلفزيون لا يقدم إلا القرآن وعندما طال ذلك قلت لزوجتى إن هناك بالتأكيد كارثة وقعت . إن الراجح عندى هوأنهم قد قتلوا الملك حسين ، فقد كان الملوك العرب مجتمعين فى القاهرة بدعوة من الرئيس عبد الناصر فى محاولة لوقف مذبحة أيلول بين الأردن والفلسطينيين، لكن فى أثناء ذلك عاد الشغال من المطعم ليقول إنه سمع أن الريس توفاه الله ففزعت فيه فزعة عارمة ونهرته بشدة وقلت له ألا يفتح فمه بمثل هذا الكلام وأن يمكث بالبيت ولا يبرحه ، فقد خشيت أن يروج مثل هذا الكلام فى الخارج ، لكن بدأ يداخلنى الشك والقلق ، ولم أستطع أن أذوق الطعام ، وبعد دقائق أعلن بالتلفزيون أن أنور السادات نائب عبد الناصر سيلقى بيانا ،

وما إن شاهدت وجه أنور السادات على التلفزيون حتى كنت أنا الذى قلت الريس مات ! فلم أر فى حياتى وجها كوجه أنور السادات فى هذا اليوم الذى كان مكتوبا عليه الموت بخط فارسى .

وأسأل الأستاذ :

○ ماذا كان شعورك بعدأن تيقنت من الخبر ؟

فيقول :

□ كنت فى حالة من الارتباك من جملة عواطف شديدة جدا . فمن ناحية لم أكن مصدقا تماما فى داحل نفسي أن عبد الناصر قد مات ، فقد كنت أحد المختلفين مع نظام حكمه ، وكنت من المعارضين الشرفاء فى الكثير من رواياتى ، خاصة ما كتبته بعد نكسة يونيو ٦٧ ، وقد قبل عبد الناصر هذه المعارضة ولم يصادر عليها لا فى كتاب ولا فى فيلم ، وفى الوقت نفسه أنا أول المعترفين بمآثره وما فعله للمجتمعين المصرى والعربى ، لكن فى هذه اللحظة لم يكن أمامى إلا مآثر هذا الزعيم العظيم ، وحدث لى فزع شخصى عميق التأثر لن أنساه ما حييت ، من أننى أنا أيضا سأموت ، فإذا كان عبد الناصر قد مات فمن ذا الذى سيحيا ؟! فالموت كما يقول الشاعر حتم مؤجل ، لكن هذا الحدث لم يجعله مؤجلا بل جعله ماثلاً أمامى ، فها هو الزعيم الذى أحدث فى العالم كله هذا التأثير بعيد المدى ، وهذا الرجل الذى دخل كل قلوب أبناء وطنه بطرق مختلفة حتى أصبح جزءًا منها ، حتى لم نكن نتصور الحياة بدونه . قد مات وانتهى ، لقد كانت تلك لحظة أخذت فيها درسًا عن قيمة العظمة وقيمة الحزن وقيمة الحياة التى لا تساوى شيئا مع إحساس شديد بالعدم ، كان يوما عانيت فيه من المشاعر المتضاربة ما لم أعان فى حياتى .

○ وكيف كان يوم رحيل السادات ؟

□ كنت قد سافرت إلى الإسكندرية أنا وابنتى الصغرى فاتن

(فاطمة) لقضاء إجازة أعياد أكتوبر ، وأثناء جلوسى إلى جانبها بالسيارة كنت أتابع وقائع الاحتفال فى الراديو .

وحين وصلنا الإسكندرية تناولنا الغداء ونمنا، وبعد أن صحوت جلست قليلا فى البلكون فوجدت إحدى الجارات تشير إلى من بلكونتها وكأنها تقول : هل سمعت الراديو ؟ فتصورت أن لى حديثا يذاع فى الراديو فأومأت إليها برأسى مبتسما ودخلت .

ثم نزلنا بعد ذلك أنا وابنتى إلى وسط البلد لنذهب إلى السينما، وأجلست فاتن فى محل مقابل لسينما مترو حيث طلبت أيس كريم وخطوت الشارع إلى السينما لشراء التذاكر ، لكن ما إن وصلت إلى السينما حتى وجدتها مغلقة، فلم أفهم كيف تغلق السينما أبوابها فذهبت إلى أحد الباعة الذين يفترشون الطريق، وكان يبيع الفول السودانى واللب وقلت مستنكرا : إن السينما مغلقة ! فقال : طبعا ، قلت له : لماذا ؟ قال : الرئيس قُتل . قلت له غير مصدق : أي رئيس؟ الرئيس السادات ؟ قال : نعم فعدت الى ابنتى مهرولا ،وعلامات الذهول على وجهى لأقول لابنتى الخبر فقالت لى : لقد أخبرنى الجرسون بذلك منذ لحظات .

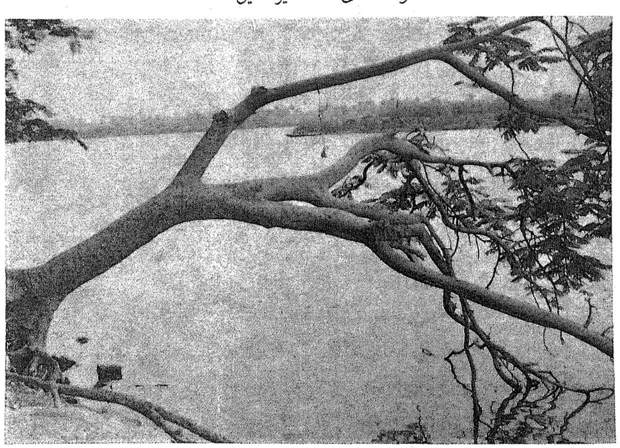
وعدنا إلى البيت فى حالة اضطراب وقلق ، وفى الصباح الباكر قلت لابنتى فاتن : عودى بى مرة أخرى للقاهرة لنرى ماذا سيحدث للبلد ، وطوال رحلة العودة وأنا جالس إلى جانب ابنتى كنت أدعو الله ألا يكون من قام بهذا العمل أحد الأقباط ، فقد كانت هناك فى ذلك الوقت اضطرابات طائفية ما بين المسلمين والأقباط غريبة تماما على مجتمعنا ،لكنها كانت تهدد أساس بنيانه ، ولاشك أن الباعث على الاغتيال كان سياسيا لكن الفاعل كان يمكن أن يكون مسلما أوقبطيا .

والحقيقة أننا كنا جميعا قد عتبنا كثيرا على السادات فى أيامه الأخيرة ،حيث كانت انفعالاته قد وصلت الى أبعد مدى ، ولم يعد يتحمل أية خلافات معه فى الرأى ووصل به الأمر إلى أن أودع المجتمع السياسى كله تقريبا فى السجن .

لكنى مع ذلك كنت مدركا لمآثره الكثيرة ، ولم أكن أحب أن ينتهى صاحب حرب أكتوبر المجيد وصاحب التعددية الحزبية مثل هذه النهاية المفجعة وفى نفس يوم عرسه ، يوم الاحتفال بذكرى حرب أكتوبر .

○ ألاحظ أنك رغم مواجهتك الموت فى أكثر من مرة فى حياتك ، إلا أنك كنت دائما وكأنك تواجهه لأول مرة ، وكأنك لأول مرة اكتشفت حقيقة مريرة لم تكن تدركها من قبل .

□ لأنه فى كل مرة كان يأتى بشكل جديد . . كانت طعنته تختلف ، لأنها تأتى فى شخص له عندى منزلة مختلفة وعلاقتى به تختلف ، فبعد أن فقدت صديق الطفولة فقدت والدى ثم فقدت الزعيم القومى والشعور فى حالة كل منها يختلف تماما ، لكن فى جميع الأحوال فقد كان الموت يقول لى : إن طعناتى ليس لها نهاية وفى كل مرة سأسدد لك طعنة جديدة لها مذاق جديد ! لذلك كان للموت عندى دائما تأثير عميق .







همــــوم اليــــوم وحــــسن الخــــتـام

وفى نهاية حديثنا أسأل الأستاذ :

○ **ماهو همك الشاغل فى هذه المرحلة من حياتك ؟**

فيقول :

□ إن أهم ما يشغل الإنسان حين يصل إلى المحطة الأخيرة من حياته ، هو أن يطمئن على ذويه والشىء الثانى هو حسن الختام .

○ **حين تتحدث عن الاطمئنان على ذويك فماذا تقصد ؟**

□ أقصد الأهل والأصدقاء والبلد .

○ **ماذا تتمنى للأهل والأصدقاء ؟**

□ أولا أتمنى أن تستمر علاقتى بهم كما هى جميلة ، وأن أراهم دائما كما أتمنى لمن أحبهم الصحة والعافية وعدم الحاجة ، وأن يحقق أفراد أسرتى ذواتهم بالطريقة التى يريدها كل منهم .

○ **. . وللبلد ؟**

□ بالنسبة للبلد أتمنى أن تستقر مصر سياسيا فلا تتغير فيها السياسات وتتبدل ما بين فترة وأخرى حتى تنقلب من النقيض إلى النقيض ، وأن تتوالى السلطة فنعرف من الذى سيأخذها حين يحين الوقت ، وأن يكون للشعب دور فى ذلك فيحاسب من يأتى بهم إلى الحكم ويصبح هناك فى البلد شبه وحدة وتضامن متمثل فى مشاركة أهل هذه الرقعة من الأرض فى تحمل مسئوليتها . إن أهم ما أتمناه للبلد هو الاستقرار السياسى .

بعد ذلك أتمنى أن يأتى اليوم الذى يقول فيه الخبراء الاقتصاديون إن مشكلتنا قد حلت وليس هناك خوف من أزمات أو انهيارات اقتصادية .

إن الاستقرار السياسى والاستقرار الاقتصادى سيتبعهما أشياء كثيرة منها تقليل نسبة البطالة وانحسار ظاهرة الإرهاب ، عندئذ تصل البلد إلى مرحلة الصحة النفسية .

هذا لايعنى أن جميع السلبيات ستختفى فهذا خيال ، فقد يكون هناك قدر من الفساد ، وقد يكون هناك قدر من الفقر أو الاضطراب لكن فى ظل الاستقرار السياسى و الاستقرار الاقتصادى فسيكون بمقدورنا تحمل نصيبنا من تلك السلبيات دون عناء كبير .

○ وهل تتوقع أن ما بقى فى عمرك وعمرى يكفى للوصول إلى هذا ؟

□ فى عمرك أنت إن شاء الله .

○ وماذا تقصد بحسن الختام؟

□ أقصد أننى أتمنى أن تكون سهلة ، فالناس يتركون هذه الدنيا على أحوال ، فى بعض الأحيان يتركونها وكأنهم فى نزهة ، فدون أن يدروا يجدوا أنفسهم قد تركوها ، وفى أحيان أخرى يخرجون بتعب شديد .

إن لي شقيقين أحدهما أصيب بالسرطان وكان الأسبوعان الأخيران من حياته غاية في الصعوبة ، والآخر مات وهو يشرب الشاى مع ابنه حيث نادى عليه ابنه فلم يجب إليه ليجده قد مات ، وذلك كرم كبير من الله ، فالموت حكم لا نملك إزاءه أى شيء وهو آت لا ريب فيه ، إن ما نطلبه ، تخفيف الحكم فقط .

○ وماذا يشغل حياتك اليومية فى الوقت الحالى ؟

□ أهم ما يشغل حياتي اليومية هو العلاج والشفاء لأنى بدونهما أشعر بدرجة كبيرة من العجز .

○ إنك تبدو سليماً معافى وهناك من هم أصغر منك سنا من المقعدين .

□ أنا لا أشكو ولا أتذمر ، لكنك تعلم أن الاعتداء الذى وقع على في أكتوبر ١٩٩٤ قد أفقدني إمكانية استخدام ذراعي اليمنى

لأن الطعنة جاءت في الجانب الأيمن من عنقى فأثرت على ما يبدو على عصب الذراع ، والكاتب لابد أن يشعر بالعجز إذا أصيب ذراعه الأيمن .

ولقد تزامن ذلك مع التدهور الذى أعيشه منذ سنين في البصر والسمع فزاد إحساسي بالعجز .

ثم تبرق عيناه وهو يضيف :

□ لكني أخضع للعلاج الطبيعي وقد أصبحت أتحكم بشكل أكبر الآن في ذراعي .

ثم يتناول كراسة من جانبه ويقول لي :

□ أريد أن أطلعك على شيء .

وأنظر إلى الكراسة فأتعرف عليها ، إنها كراسة التدريبات اليومية التى يدرب يده فيها على الكتابة ، ونظرت إليها فوجدت أسماء بعض أصدقائه ومن بينها اسمي واسم جمال الغيطاني وآخرين .

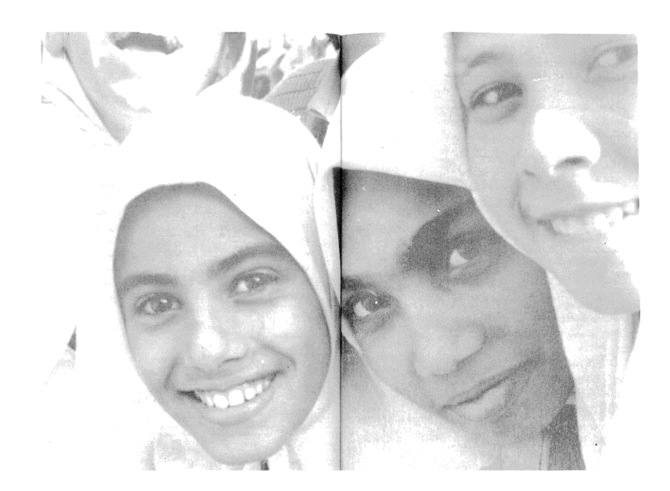
وأنظر إلى عينيه مستفسرا ، فيقول لي :

□ ألا تلاحظ شيئاً ؟

وأنظر ثانية فأرى نفس الخط غير السليم الذى كنت أراه كل مرة أنظر فيها إلى تلك الكراسة فيقول لي ثانية :

□ ألا ترى ؟ إننى لم أعد أنزل عن السطر .

ويكاد الدمع يفر من عيني حبا لهذا الرجل ، وأنا أرى الحماس يبرق فى عيني كاتب مصر الكبير الذى عاد يتعلم الكتابة مرة أخرى في سن الـ ٨٥ بعد أن كرمه العالم بمنحه أرفع الجوائز التى تعطي للكتابة ، ويملؤنى شعور عظيم بالاحترام والتقدير للرجل لمثابرته وعدم قبوله للهزيمة .

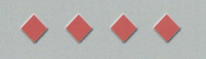


الفهـــرس

رقم الايداع : ١٣٩٥٢ / ٩٦
I.S.B.N. 977 - 09 - 0363 - 9

مطابع الشروق
القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى - ت : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)





هذا هو العام السابع من عمر « مكتبة الأسرة ».. ومنذ سنوات طوال لم يلتف الناس حول مشروع ثقافى كبير كما التفوا حول هذا المشروع الثقافى الضخم حتى أصبح مشروعهم الخاص، وطالبوا باستمراره طوال العام. واستجبنا لهذا المطلب الجماهيرى العزيز إيمانًا منا بأهمية الكتاب؛ وبالكلمة الجادة العميقة التى يحتويها؛ فى إعادة صياغة وتشكيل وجدان الأمة واستعادة دورها الحضارى العظيم عبر السنين.

لقد استطاعت « مكتبة الأسرة ».. أن تعيد الروح إلى الكتاب مصدرًا هامًا وخالدًا للثقافة فى زمن الإبهارات التكنولوچية المعاصرة.. وها نحن نحتفل ببدء العام السابع من عُمر هذه المكتبة التى أصدرت ١٧٠٠ عنوانًا فى أكثر من ٣٠ مليون نسخة تحتضنها الأسرة المصرية فى عيونها وعقولها زادًا وتراثًا لا يبلى من أجل حياةٍ أفضل لهذه الأمة.. ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة فى كل بيت.

سوزان مبارك



